صـخـــبٌ على حـــافةِ الفنــاء الجــزء الثالث
من أحبني فليطرق بابي
تــأليـف
محمد عبد العزيز أحمد الباكر
إهـــداء

أهدي هذا الكتاب ...
إلى كل من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله
إلى كل من آمن بمحمد وعيسى بن مريم وموسى عليهم السلام
إلى القلوب الطاهرة النقية
إلى كل من ضحى بنفسه وماله وولده في سبيل نصرتك يا محمد

اهدي هذا العمل

المؤلِفْ
]
مقــدمة
يظل الإنسان دائماً وأبداً على مر العصور عدو ما يجهل كما يقولون، لكن أن يظل عدو نفسه عناداً واستكباراً وإصراراً على الغي، فهذا عين الجهل والحماقة.. ورغم ما وصلت إليه البشرية من تقدم مادي وتكنولوجي، واستخدمت عقلها بإصرار وتصميم على الوصول إليه، ولم تترك باباً من أبواب العلم إلا وولجته من أجل ذلك، إلا أنها في الحقيقة كانت تتغيا مرابح ومنافع مادية آنية، وكانت تنشد الوصول إلى السعادة والرغد والذي ما لبس أن تحول إلى سعار من الشقاء لحيازة المادة التي تجلب تلك السعادة، ومن ثم تحولت الوسيلة إلى هدف بعد أن ضاع الهدف نفسه وهو تلك السعادة والطمأنينة.
وفي ظل ذلك السعار نسي الإنسان إنسانيته، وتخلى عن كثير من قيمه الروحية ومثله الأخلاقية العليا ومن العجيب أن الإنسانية رغم ما شهدته من مآس وكوارث ورغم ما تعيشه من آلام يصعب عليها أن تعترف بأن ما حدث ويحدث هو نتاج بعدها عن جادة الهدى وعن قيم وشرائع بعث الله بها أنبياءه ورسله ليبينوا للناس ولبني الإنسان طريق سعادتهم في الدنيا ونجاتهم في الآخرة.
فهذا هو القرن الحادي والعشرون ينهي عقده الأول ومشاهد الدمار والخراب والفقر تشوه بقوة ووضوح المشهد الإنساني وتقوض بقوة وشدة كل الشعارات التي رفعت من أجل الإنسان من قبل قوى طاغية شيطانية تزين للإنسان لباسه لتقضم قيمه وإنسانيته وتزين للإنسان العدل والحرية لتسلبهما منه وتحيله أشلاء وبقايا إنسان في داخله وفي روحه.
ولا يمكن لمتابع عاقل في كل أركان الكرة الأرضية أن تعمى عينه وتصم أذنه عن ما يتعرض له الإنسان من جور وظلم وقتل وتمييز وباطل، فالكل يشكو ويتألم، لكنهم وبقوة شيطانية خفية لا يستطيعون العودة إلى جادة الهدى وسبيل الحق الذي جاء به المرسلون وخاتمهم رسول الله محمد [، الذي بعثه الله للعالمين هادياً ومبشراً ونذيرا، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً.
محمد عبد العزيز الباكر
لقد جاء محمد صلوات الله عليه وسلامه بمشروع ونهج كوني يصلح فساد الأمم في مكانها وزمانها ويضمن للبشرية طمأنينة النفس ويدفع عنها غائلة الظلم والقتل والدمار، لكن وللأسف تقف القوى الشيطانية بعنادها وصلفها وتصر مستكبرة على أن تحقق مصالحها المادية من خلال ولوغها في دم الإنسان وتحويله إلى حطام من الفقر وكومة من المرض قهراً وظلماً وبغياً. وكان مشروع محمد [دواء وترياقاً لكل الأمم يضمن لها حياة هانئة سعيدة وآمنة.
وأصرت القوى الشيطانية إصراراً واستكباراً على غيها ولم تزدهم دعوة النبي محمد صلوات الله عليه وسلامه إلا فراراً وابتعاداً عن النهج العظيم الذي أنزله الله تعالى ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ويحولهم من عبادة الطواغيت من البشر والمال والمادة إلى عبادة الله الواحد القهار، وتصر هذه القوى الشيطانية على مشروعها المتمثل في تحويل البشر من عبادة الله إلى عبادة المادة والذهب والقوة، دونما إدراك عقلي إلى النهاية المحتومة تحت التراب وبين يدي العزيز الجبار.
بسم الله الرحمن الرحيم {أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون صم بكم عمي فهم لا يرجعون} صدق الله العظيم.
الرسولُ محمّد
في عيون غربية منصفة

في ديوانه الرائع (الديوان الشرقي للشاعر الغربي) يخاطب شاعر الألمان غوته، أستاذه الروحي الشاعر حافظ شيرازي فيقول: (أي حافظ! إن أغانيك لتبعث السكون.. وإنني مهاجر إليك بأجناس البشرية المحطمة، لتحملنا في طريق الهجرة إلى المهاجر الأعظم محمد بن عبد الله..).

ويقول غوته: (إننا أهل أوروبا بجميع مفاهيمنا، لم نصل بعد إلى ما وصل إليه محمد، ولن يتقدم عليه أحد، ولقد بحثت في التاريخ عن مثل أعلى لهذا الإنسان، فوجدته في النبي محمد.. وهكذا وجب أن يظهر الحق ويعلو، كما نجح محمد الذي أخضع العالم كله بكلمة التوحيد).

ويقول الأديب الروسي (ليو تولستوي) والذي حرمته الكنيسة بسبب آرائه الحرة الجريئة: (أنا واحد من المبهورين بالنبي محمد الذي اختاره الله الواحد لتكون آخر الرسالات على يديه، وليكون هو أيضاً آخر الأنبياء.. ويكفيه فخراً أنه هدى أمة برمتها إلى نور الحق، وجعلها تجنح للسكينة والسلام، وفتح لها طريق الرقي والمدينة).

ويقول الشاعر الفرنسي الشهير (لا مارتين): (أعظم حدث في حياتي هو أنني درست حياة رسول الله محمد دراسة واعية، وأدركت ما فيها من عظمة وخلود، ومن ذا الذي يجرؤ على تشبيه رجل من رجال التاريخ بمحمد؟! ومن هو الرجل الذي ظهر أعظم منه، عند النظر إلى جميع المقاييس التي تُقاس بها عظمة الإنسان؟! إن سلوكه عند النصر وطموحه الذي كان مكرساً لتبليغ الرسالة وصلواته الطويلة وحواره السماوي.. هذه كلها تدل على إيمان كامل مكّنه من إرساء أركان العقيدة. إن الرسول والخطيب والمشرع والفاتح ومصلح العقائد الأخرى الذي أسس عبادة غير قائمة على تقديس الصور هو محمد، لقد هدم الرسول المعتقدات التي تتخذ واسطة بين الخالق والمخلوق).

ويقول الفيلسوف الإنجليزي جورج برنارد شو: (لقد درست محمداً باعتباره رجلاً مدهشاً، فرأيته بعيداً عن مخاصمة المسيح، بل يجب أن يدعى منقذ الإنسانية، وأوروبا بدأت في العصر الراهن تفهم عقيدة التوحيد، وربما ذهبت إلى أبعد من ذلك، فتعترف بقدرة هذه العقيدة على حل مشكلاتها بطريقة تجلب السلام والسعادة! فبهذه الروح يجب أن تفهموا نبوءتي).

(إذا حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس، قلنا إن محمداً رسول المسلمين أعظم عظماء التاريخ، فقد كبح جماح التعصب والخرافات، وأقام فوق اليهودية والمسيحية ودين بلاده القديم ديناً واضحاً قوياً، استطاع أن يبقى إلى يومنا هذا قوة ذات خطر عظيم).

(لم يسجل التاريخ أن رجلاً واحداً، سوى محمد، كان صاحب رسالة وباني أمة، ومؤسس دولة.. هذه الثلاثة التي قام بها محمد، كانت وحدة متلاحمة، وكان الدين هو القوة التي توحدها على مدى التاريخ).

ويقول الفيلسوف الفرنسي فولتير: (لقد قام الرسول بأعظم دور يمكن لإنسان أن يقوم به على الأرض.. إن أقل ما يقال عن محمد أنه قد جاء بكتاب وجاهد، والإسلام لم يتغير قط، أما أنتم ورجال دينكم فقد غيرتم دينكم عشرين مرة).

ويقول مايكل هارت في كتاب (المائة الأوائل): (كان محمد الرجل الوحيد في التاريخ الذي نجح في مهمته إلى أقصى حد، سواء على المستوى الديني أم على المستوى الزمني).

أما عالم اللاهوت السويسري المعاصر د. هانز كونج والذي يعتقد أن المسيح إنسان ورسول فحسب اختاره الله، فيقول: (محمد نبي حقيقي بمعنى الكلمة، ولا يمكننا بعد إنكار أن محمداً هو المرشد القائد على طريق النجاة).

ومما ميز حياة الرسول الخاتم [أن حياته وسيرته وشمائله كلها قد حفظها لنا التاريخ، فليس ثمة غموض في أي ناحية من حياته وسيرته. وقد اعترف بهذه الحقيقة كبار المؤرخين الغربيين. فالمؤرخ البريطاني الشهير (أرنولد توينبي) يقول: (الذين يريدون أن يدرسوا السيرة النبوية العطرة يجدون أمامهم من الأسفار مما لا يتوافر مثله للباحثين في حياة أي نبي من أنبياء الله الكرام).

ويقول الكونت كاتياني في كتابه (تاريخ الإسلام): (أليس الرسول جديراً بأن تقدَّم للعالم سيرته حتى لا يطمسها الحاقدون عليه وعلى دعوته التي جاء بها لينشر في العالم الحب والسلام؟! وإن الوثائق الحقيقية التي بين أيدينا عن رسول الإسلام ندر أن نجد مثلها، فتاريخ عيسى وما ورد في شأنه في الإنجيل لا يشفي الغليل).

ويقول المستشرق المعروف غوستاف لوبون: (نعرف ما فيه الكفاية عن حياة محمد، أما حياة المسيح فمجهولة تقريباً، وإنك لن تطمع أن تبحث عن حياته في الأناجيل).

ويلحّ ر. ف. بودلي على هذا المعنى فيقول: (لا نعرف إلا شذرات عن حياة المسيح، أما في سيرة محمد فنعرف الشيء الكثير، ونجد التاريخ بدل الظلال والغموض).

ويقول المستشرق هيل في كتابه (حضارة العرب): (لقد أخرج محمد للوجود أمة، ومكن لعبادة الله في الأرض، ووضع أسس العدالة والمساواة الاجتماعية، وأحل النظام والتناسق والطاعة والعزة في أقوام لا تعرف غير الفوضى).

ويقول المستشرق الإسباني جان ليك في كتابه (العرب): (لا يمكن أن توصف حياة محمد بأحسن مما وصفها الله بقوله: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ» كان محمد رحمة حقيقية، وإني أصلي عليه بلهفة وشوق).

ويقول المؤرخ كريستوفر دارسون في كتابه (قواعد الحركة في تاريخ العالم): (إن الأوضاع العالمية تغيرت تغيراً مفاجئاً بفعل فرد واحد ظهر في التاريخ هو محمد).

ويقول العلامة شيريل، عميد كلية الحقوق بفيينا:(إن البشرية لتفتخر بانتساب رجل كمحمد إليها).

ويقول الباحث الفرنسي كليمان هوارت: (لم يكن محمداً نبياً عادياً، بل استحق بجدارة أن يكون خاتم الأنبياء، لأنه قابل كل الصعاب التي قابلت كل الأنبياء الذين سبقوه مضاعفة من بني قومه.. نبي ليس عادياً من يقسم أنه «لو سرقت فاطمة ابنته لقطع يدها»! ولو أن المسلمين اتخذوا رسولهم قدوة في نشر الدعوة لأصبح العالم مسلماً).

ونختم بقول الشاعر الروسي الشهير (بوشكين): (شُقّ الصدر، ونُزع منه القلب الخافق.. غسلته الملائكة، ثم أُثبت مكانه! قم أيها النبي وطف العالم.. وأشعل النور في قلوب الناس).

لم يكن السيد هنري دي كاستري وهو يكتب كتابه الشيق عن الإسلام (خواطر وسوانح) أثناء خدمته في الجزائر، يكتب عن هدى أو ليمجد في دين محمد [وإنما تغيا فهماً غريباً صحيحاً وغير مغلوط للإسلام كدين ولرسول الله محمد [بعدما حولت الكنيسة في أوروبا كراهية الإسلام في أذهان الغربيين إلى أيقونة مقدسة في عقولهم وأعطتهم فكرة وصورة مشوهتين للإسلام والمسلمين، وكان السيد هنري دي كاستري يتغيا من كتابه (خواطر وسوانح) أن يعطي أبناء قومه في أوروبا فهماً صحيحاً باعتبارهم يقصد هنا الشعب الجزائري المسلم لرعايا فرنسيين حيث كان الفرنسيون يؤمنون بأنه ليس لمسلمي الجزائر إلا أن يتحولوا إلى مسيحيين فرنسيين أو أن يفنوا بعد أن كانت الجهود تبذل بقوة من قبل الفرنسيين لتنصير المسلمين هناك أو دفعهم للهجرة من بلادهم أو إبادتهم. وعن نبي الإسلام محمد [يقول كاستري: كنت كلما بحثت في الديانات، مع صاحب لي من طلبة العلم في تلمسان، وأراد الهرب من الجدال، يُجيبني: هم يقولون إن لله ولداً، وإن محمداً لمن الساحرين!

إجابة مملوءة بالاحتقار، كما يجيب صاحب المعتقد وثنياً، يريد أن يشفق عليه. وذلك مع مبالغته في احترامي، وحسن الصلات بيننا.

وكان يرى أن التثليث خرافة فادحة، كسحر محمد، وأن المسيحيين ـ الذين اخترعوا البدعتين ـ قوم لا ينبغي الجدال معهم.

ولست أدري ما الذي يقوله المسلمون لو علموا أقاصيص القرون الوسطى، وفهموا ما كان يأتي في أغاني القوال من المسيحيين! فجميع أغانينا ـ حتى التي ظهرت قبل القرن الثاني عشر ـ صادرة عن فكر واحد، كان السبب في الحروب الصليبية. وكلها محشوة بالحقد على المسلمين، للجهل الكلي بديانتهم.

وقد نتج عن تلك الأناشيد، تثبيت هاتيك القصص في العقول ضد ذلك الدين، ورسوخ تلك الأغلاط في الأذهان. ولايزال بعضها راسخاً إلى هذه الأيام، فكل ناشد كان يعد المسلمين مشركين، غير مؤمنين، وعبدة أوثان مارقين. وقد جعلوا لهم ثلاثة آلهة، هم على ترتيب درجاتهم: (ماهوم) ويُنطق: ماهوم، ويافوميد، وماهوميد. وهو محمد [. ثم (آبلين)، ثم (ترفاجان)!

وذهبوا إلى أن محمداً [وضع دينه بادعائه الألوهية! ومن المستغربات قولهم: إن محمداً ـ الذي هو عدو الأصنام، ومبيد الأوثان ـ كان يدعو الناس لعبادته في صورة وثن من ذهب! كما كان يعتقد (الكارولنجيون)، إن المسلمين لما غلبهم الإفرنج، وصدوهم إلى أسوار سرقسطة، عادوا إلى أصنامهم فحطموها. كما طنطن به أحد منشدي ذلك العصر، حيث قال: (وكان آبلين في مغارة هناك، فترامو عليه، وأوسعوه شتماً وسباً، وصلبوه من يديه في أحد العمدان، وجعلوا يدوسونه بأقدامهم، ويوجعونه ضرباً بالعصي حتى هشموه. وأما (ماهوم)، فقد رموه في حفرة وتركوا الكلاب والخنازير تنهشه، وتمشي عليه. وتلك إهانة لم تُصب إلهاً قبله)!

ويظهر أن المسلمين لم يلبثوا أن تابوا من ذنبهم، واستغفروا آلهتهم، وأصلحوا ما أتلفوه منها. ولذلك أمر الإمبراطور كارلوس بإبادتها لما دخل سرقسطة ـ كما جاء في قول ذلك الشاعر:

(وقد أمر الإمبراطور الفرنسيين، فطافوا جميع أنحاء المدينة، ودخلوا المساجد والجوامع وبأيديهم مطارق من حديد، فكسروا بها ماهوميد، وجميع الأوثان والأصنام).

وكذلك يقول (ريشار) في أناشيده، وهي جميلة لا شيء من الخراف فيها، إلا أنها زور وبهتان، حيث يطلب من الله أن يوقع الفشل العميم بين (أولئك الذين يعبدون صورة ماهوم).

ثم جعل يحرض الأشراف على الحرب المقدسة، وينصحهم أن ينكسوا أصنام المسلمين: (قوموا ونكسوا صنم ماهوميد، وترفاجان، وصبوهم على النار، وقدموهم إلى ربكم).

وذهبوا إلى أن صورة ماهوم كانت تُصنع من أنفس الأحجار والمعادن، بأحكم صنع، وأدق اتفاق. ومن قرأ وصفه في أناشيد (رولان)، كاد يحلف أن ذلك الشاعر، إنما يصف عن خبر وعيان. يقول: (.. وكانت كلها من الذهب والفضة. لو شاهدتها لأيقنت أنه لا يمكن للعقل أن يتصور أجمل منها. عظيمة الشكل، لطيفة الصنع، تلوح على وجهها سمات الشهامة. كان (ماهوم) من ذهب وفضة، يأخذ بريقها بالأبصار. قد وضع فوق فيل، على جلسة من أجمل المصنوعات. خاوياً من جوفه، فيرى الضوء من خلاله مرصعاً بنفائس الأحجار المضيئة. يرى الناظر باطنه من الظاهر. وهو صنع (عز عن المثال والنظير)!.

ولما كانت الآلهة تُنزل الوحي وقت الشدائد، وانهزم المسلمون في إحدى غزواتهم، بعث قائدهم إلى مكة، يطلب ربه. قال الراوي:

(فجاء الإله محمد في موكب عظيم، يضرب بالطبل والمزامير ضرباً يسمع له دوي قاصف. وبعضهم يغني بالمزمار، والآخر بصفارة من الفضة. والكل حولهم يرقصون، ويغنون بأعلى أصواتهم. وأقبلوا به فرحين، حيث المجلس معقود، والخليفة الديني في انتظاره. فلما رآه، قام يعبده بخضوع وخشوع).

ثم أخذ (ريشار) بعد ذلك يقص كيفية مناجاة أولئك الوثنيين لذلك الصنم الذي وصفه بالتجويف، وأن لا شيء في باطنه إلا ويُرى من الخارج. فقال: (وقد وضعوا في جوفه عفريتاً، استحضره السحرة، وصار ينط ويعربد، ثم أخذ يكلم المسلمين وهم يسمعون).

ولقد زاد بغضهم لذلك الصنم، حتى جعلوه علامة على الدين الإسلامي، كما جعلوا الصليب علامة للدين المسيحي. فروى (بودوان) في نشيده على الكونتيسة (بونتيو)، لما أرادت أن تعتنق الإسلام أمام صلاح الدين أنها قالت: (أريد أن أعبد محمداً، فائتوني به. فلما صار بين يديها، خرت ساجدة إليه).

ويأخذ القارئ من نشيد آخر، يظهر أنه وضع تتمة لأناشيد (بودوان)، وجود إلهين للمسلمين غير الذين سبق ذكرهم. وهما (بارتوان) و(جوبين) إلا أن الثلاثة الأولين هم الرؤساء!

ولما رد أحد قادة المسيحيين جيش المسلمين الذي خرج من مكة، أخذ الشاعر يصف اضطراب المسلمين كما يأتي:

وقد جعل الوثنيون يصيحون، ويصرخون ويموجون بينهم، ويهرجون وينادون بأعلى أصواتهم: يا (ترفاجان)! يا (ماهوم)!

ومع ذلك، يوجد نشيد من أناشيد القرون الوسطى، لا يرى فيه القارئ رمزاً إلى محمد بالصنم. وهو للقسيس (إسكندروديون)، ألفه سنة 1258م، أخذاً عن مسلم تنصر من ذوي الاعتبار. وعد الناس تلك القصة تاريخاً صحيحاً عن ذلك. وقد جاء فيها:

(إنه من المعلوم أن محمداً كان عالماً بطرق المكر والخيانة والخداع).

ثم شبهه بأحد الأمراء، المحاط بأتباعه، ينشر دينه على أبسط حال، حتى اعتقده الناس أكثر مما اعتقدوا حبر روما.

ولقد أطلنا القول في تلك الأضاليل، لأن تاريخ (إسكندر) المذكور لم يزلها، ولأنها تركت أثراً في الأذهان، وصل إلى أهل هذه الأيام، وتشبعت به أفكارهم في النبي [وكتابه.

ولو سأل سائل: هل كان أولئك المنشدون يعتقدون صحة ما يقولون؟ لأجبناه جواب أهل الفلسفة: لا. ونعم. إذ من المحقق أن الاختلاط بين المسيحيين والمسلمين، سهل للمنشدين معرفة الدين الإسلامي على حقيقته، ولكنهم ما كانوا يقصدون الحقائق التاريخية في أناشيدهم، بل حفظ روح البغضاء في نفوس قومهم، فاحتاجوا في ذلك إلى وصف المسلمين ونبيهم ودينهم، بالأوصاف التي تؤثر في نفوس المنشود لهم، على حسب معارفهم وأميالهم.

وإذا انتقلنا من شعراء القرون الوسطى إلى من جاء بعدهم من المؤرخين والمتكلمين (الباحثين في علم التوحيد)، الذين يظهر من كتبهم في ذلك الزمن، أنهم ميالون إلى الاعتدال، وجدنا مؤلفاتهم محشوة بتلك الأقاصيص الخرافية، مملوءة بالطعن والشتائم في نبي المسلمين، وكان المصلحون (وهم البروتستانت أيام دعوتهم لإصلاح الدين المسيحي) أشد تعصباً ضده من غيرهم، فقد اعتنى (بيبلياندر) بتشبيه محمد بالشيطان، وعاملوا كتابه وشرعه كما عاملوه.

ولسنا نقيم برهاناً على ما نقول، غير توجيه نظر القارئ إلى مطالعة ما جاء في مقدمة كتاب (ريلان)، الذي ألفه سنة 1721م، تحت عنوان: (ما هو السبب في أن الناس عامة لا يعرفون من الديانة المحمدية إلا شيئاً يسيراً؟). حيث يقول:

(لو أراد الباحثون أن يصموا مذهباً أو طريقة بوصمة الخزي والعار، نسبوها إلى محمد. فقالوا مذهب محمدي، أو طريقة محمدية.. وهكذا).

وألفّ القس (دون مارتينو ألفرنسو كيكالدو) كتاباً سماه (سراج الكنيسة المقدسة الذهبي). جاء فيه:

(إن كتاب محمد لا تلزم قراءته، بل يجب أن يسخر به، وأن يحتقر ويرمى في النار أنى وجد، ولا يليق أن يحفظه الناس، لأنه عمل بهيمي).

وبعضهم كان لا يقول بحرقه، ولكنه يرى أنه: (من العبث أن يجهد الإنسان نفسه، ويزيد إيلامها بحفظ هزئيات وأمور تافهة، منشؤها خيالات شخص اختل عقله، واضطربت قواه).

وأما المسلمون، فمن أسمائهم في تلك الكتب: البلدة، والكسالى، والحمير، والحمر الوحشية، والممقوتون الذين يملأون المنزل بالنساء في الليل، ويطلقونهن في النهار.

ولو أردت الاطلاع على جعبة الشتائم والسباب، فعليك بكتاب ألفه أحد اليسوعيين، وهو (بروشار)، وسماه (مرشد السياحة) وقدمه إلى الأمير (فيليب روكالو) سنة 1332م. وذكر فيه الأسباب التي تحمله على الدعوة إلى حرب صليبية. فقال:

(من ذا الذي لا يذرف عبرات الدمع، عندما يعلم أي الرجال هم قابضون اليوم على تلك البقاع، التي هي ميراثنا، أولئك قوم لا رب لهم، ولا دين يهديهم، ولا شرع يرجعون إليه، ولا عهد، ولا رحمة. أولئك قوم أخساء أدنياء. وهم أعداء لكل حقيقة في الوجود، وكل صفاء، وكل خير، وكل عدل. أولئك هم أعداء الصليب، الكافرون بالله، المضطهدون للمسيحيين، المفرطون في نسائهم، الفاسقون بالأطفال، الظالمون لعجم الحيوانات، المخالفون لطبائع البشر، القتالون للفضائل، المميتون للأخلاق، الغارقون في القبائح والخطايا. أولئك هم أولياء الشيطان، وأنصار الدنايا، ذوو حقد وبغض، ذوو أفكار سافلة، وأعمال سخيفة، وعيشة دنيئة، وأقوال بذيئة، وعشرة سوء معدية. لا تنصرف إرادتهم، ولا تتجه هممهم، إلا إلى اللذائذ البهيمية، والمعيشة الهمجية. أولئك هم القوم الذين أبعدونا عن تلك البقاع، وآذونا في هذه البقعة الصغيرة، التي نحن فيها، مستهزئين بنا، وساخرين بديننا. أولئك هم الذين خربوا بيت الله، وملكوا المدينة المقدسة، التي هي مهبط شرعنا، ولوثوا أماكنها المقدسة المطهرة).

ولم يزل هذا الأمر سائداً عند المسيحيين، حتى أن المستشرق (بريدو) الإنجليزي ألف سنة 1733م كتاباً في سيرة النبي [عنوانه (حياة ذي البدع محمد). وترجمه بعضهم إلى لغتنا، وجعل له مقدمة، بيَّن فيها مقصد المؤلف فقال: (إن غرض واضع هذا الكتاب هو خدمة المقصد المسيحي الحكيم، بذكر حياة ذلك الرجل الشرير محمد).

أولئك كُتاب ما قصدوا التاريخ، ولكنهم أرادوا خدمة المقصد المسيحي الحكيم ـ كما يقولون. وكان سلاحهم الوحيد في تأييد سواقط حججهم، أن يُشبعوا خصمهم سباً وشتماً، وأن يُحرِّفوا في النقل مهما استطاعوا.

وأراد (داماسين) أن يخالفهم في التأليف، لكونه تربى في دمشق الشام، وكان مقرباً عند الحلفاء، فجعل يورد دين الإسلام من غير تعصب، لذلك عده بدعة في الديانة المسيحية، تقرب من بدعة (أريوس).

ومع ذلك، فلم تؤثر عبارته في رأي الغربيين، بل ظلوا يعتقدون الخرافات في النبي [، وقرآنه، وكان رؤساؤهم الروحانيون يجتهدون دائماً في تأييدها وتمكينها من الأذهان. وهي سياسة جعلت الناس عندنا يهزؤون بالدين الإسلامي، وأغنت الباباوات عن حربه حرباً صحيحة. فقد

كانت الكنيسة اللاتينية في القرن الثامن مشتغلة بأمور أخرى، لأن الكنيسة الشرقية كانت واقعة بين عاملين مضرين هما: أحزاب النفسين في جسد، وأحزاب النفس الواحدة في جسم واحد.
ولم يبدأ البحث في الإسلام بغير تعصب، ولا تشيع، إلا في زمننا هذا، ففي القرن التاسع عشر، أخذ الباحثون ينظرون إلى المسألة نظر الناقد البصير، وكان من وراء ذلك، أن افترق الناس في القرآن إلى معجب به، وطاعن فيه.
ومع ذلك، لا نزال نرى في لسان البعض ما تُشتم منه رائحة تأثرهم بالأفكار الماضية. قال مسيو (دروختي)، في سياحته في بلاد الغرب، التي نشرها سنة 1878م عن النبي: (إنه عربي خائن دني).
وقد نسي أن هذه الألفاظ، التي يشمئز منها السامع، لم تعد تصلح اليوم حجة على صحة الدعوى.
وأول ما دار البحث فيه، مسألة صدق النبي [في رسالته. وقد قلنا: إن ذلك الصدق متفق عليه بين المستشرقين والمتكلمين على التقريب، ومعلوم أنه لا ارتباط بين هذه المسألة، وبين كون القرآن كتاباً منزلاً من عند الله، ولسنا نحتاج ـ في إثبات صدق محمد [ـ إلى أكثر من إثبات أنه كان مقتنعاً بصحة رسالته، وحقيقة نبوته. أما الغرض من تلك الرسالة في الأصل، فهو إقامة الإله الواحد، مقام عبادة الأوثان، التي كان عليها قبيلته قبل ظهوره.
وبيان ذلك: أن إسماعيل لما حنقت عليه سارة، وطرد من عائلة أبيه، توجه إلى بلاد العرب، ونقل إليها ديانة أبيه إبراهيم، إلا أنه لم يبق بين العرب من تلك الديانة سوى شيء قليل، يشبه الخيال، إذ لم يكن عندهم من يذكرهم على الدوام بأن رب إبراهيم هو رب عزيز، لا يقبل له شريكاً، كما حصل ذلك لنبي إسرائيل. ولا يزال هذا الاعتقاد يزول شيئاً فشيئاً، وتحل محله عبادة الآلهة، التي كانت معروفة في أمم أخرى، حتى تُنوسي دين إسماعيل تماماً.
ثم دخلت اليهودية في بعض القبائل المجاورة لبلاد الشام، ولكن الديانة المسيحية لم تعلق في تلك البقاع حتى أن تنث (قس بصرة)، اعترف في القرن الرابع بأن معيشة العرب الرحالة النقالة، تمنع من انتشار تلك الديانة في بقية جزيرة العرب.
تلك هي حالة الدين ببلاد العرب إلى القرن السابع، وقد بحث فيها الكتاب كل على حسب أمياله، وكما أعتقد، لذلك تناقضت أقوالهم في اعتبارهم، والحكم على أهلها، فقال مسيو (رينان):
(لا يوجد في تاريخ التمدن كله صورة أجمل من حالة بلاد العرب قبل الإسلام).
ومن رأيه أن القبائل في تلك البقاع كانت تدين باليهودية، أو بالدين المسيحي، وكانت مشتغلة بحركة دينية عظيمة.
وقال مسيو (بارتيلي سانت هيلير): (لو صح أن أولئك كانوا على جانب عظيم من التمدن ـ كما يدَّعون، لما احتاجوا إلى تلك التعاليم الأدبية، التي تقشعر أبداننا لسماعها: {حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت} (النساء: 23)).
ومن رأي المؤلف: أن العرب كانت أمة متبربرة، في حالة من التوحش، تقرب من حالة العبرانيين، أيام بُعث فيها موسى، بمثل ما تقدم من المحرمات.
ولست أريد الخوض في ترجيح أحد الرأيين، ولكني أرى أن التوسط في الأمور، أقرب إلى الصواب، وأن أمة العرب قبل النبي [كانت وثنية على وجه العموم، وكان مذهب توحيد الإله يخطر في الأذهان رويداً رويداً. وكان المشخصون لهذا الاعتقاد، فريق يقال لهم (الأحناف)، بقوا على مذهب إبراهيم عليه السلام.
أما المسيحيون فكانوا فرقاً كثيرة، كلها تعتقد بمذهب التكثير (تعدد الآلهة والتثليث).
وتلقى محمد [مذهب أولئك الأحناف بحالة سطحية. ولكن لما كانت نفس ذلك النبي مفطورة على التشبع بالدين، تكيَّف هذا المذهب في وجدانه، حتى صار اعتقاداً لم تصل إليه نفس قبله إلا قليلاً، وهو ذلك الاعتقاد المتين، الذي أحدث انقلاباً كلياً في النوع البشري.
ومن الخطأ أن يبحث عن هذا المبدأ العميم فيضه من غير طريقة الأحناف، لأن محمداً [ما كان يقرأ ولا يكتب، بل كان كما وصف نفسه مراراً نبياً أميَّاً. وهو وصف لم يعارضه فيه أحد من معاصريه. ولا شك أنه يستحيل على رجل في الشرق أن يتلقى العلم بحيث لا يعلمه الناس، لأن حياة الشرقيين كلها ظاهرة للعيان.
على أن القراءة والكتابة كانت معدومة في ذلك الحين في تلك الأقطار. ولم يكن بمكة قارئ أو كاتب، سوى رجل واحد.
وكذلك من الخطأ ـ مع معرفة أخلاق الشرقيين ـ أن يُستدل على معرفة النبي [للقراءة والكتابة، باختيار (السيدة) خديجة (رضي الله عنها) إياه لمتاجرها في الشام، ويقال: إنه لم تكن خديجة لتعهد إليه أعمالها في التجارة إن كان جاهلاً غير متعلم. فإنا نشاهد بين تجار كل قوم ـ غير العرب ـ وكلاء، لا يقرؤون، ولا يكتبون، وهم في الغالب أكثرهم أمانة وصدقاً.
إذن، ثبت مما تقدم أن محمداً [لم يقرأ كتاباً مقدساً، ولم يسترشد في دينه بمذهب متقدم عليه، خلافاً لما ذهب إليه (إسكندر ديون) حيث يقول: (إنه كان يعرف في دين عيسى قراءة وكتابة).
نعم، إن البحث عن معرفة المصادر، التي عساه يكون تلقى عنها بالمشافهة، ديانة المسيح، أو الديانة اليهودية، أو ديانة عبَّاد الكواكب، قد يكون مفيداً لمعرفة الموافقات التي جاءت بين القرآن وبين التوراة، إلا أنه بحث ثانوي، إذ لو فرض وكان القرآن قد نقل بعضاً من الكتب المقدسة الأخرى، لبقي الأمر مشكلاً ـ كما كان عليه ـ في معرفة حقيقة ما اختلج بروحه الديني، وكيف وجد فيها ذلك الاعتقاد الثابت بوحدانية الله، حتى استولى عليه روحاً وجسماً!

ولقد نعلم أن محمداً [مر بمتاعب كثيرة، وقاسى آلاماً نفسية كبرى قبل أن يخبر برسالته، فقد خلقه الله ذا نفس تمحصت للدين. ومن أجل ذلك، احتاج إلى العزلة عن الناس، لكي يهرب من عبادة الأوثان، ومذهب تعدد الآلهة، الذي ابتدعه المسيحيون. وكان بغضهما متمكناً من قلبه، حتى كان وجود هذين المذهبين أشبه بإبرة في جسمه].

ولكي ينفرد محمد [بما ألهم من الفكر العظيم، وهو وحدانية الله، اعتكف في جبل حراء، وأطلق العنان لفكره، يجول في بحار التأملات، عابداً متهجداً.

ومضت عليه بهذه الحال ليال من ليالي هاتيك البقاع، التي تملأ النفس انشراحاً، حتى جاء عنها في لسان العامة: أن الملائكة يسألون ربهم، لو أذن لهم في الهبوط من السماء، لقضاء ليلهم على الأرض، إعجاباً بجمال الليل فيها، وشوقاً إلى صفائه وجلاله.

ولعمري! فيم كان يفكر ذلك الرجل الذي بلغ الأربعين، وهو في ريعان الذكاء، ومن أولئك الشرقيين الذين امتازوا في العقل بحدة التخيل، وقوة الإدراك، لا بوضع المقدمات، وتعليق النتائج عليها؟ ما كان إلا أن يقول مراراً، ويعيد تكراراً كلمات: (الله أحد، الله أحد).

كلمات رددها المسلمون أجمعون في عهده، ومن بعده، ولكن غاب عنا ـ معشر المسيحيين ـ مغزاها، وذلك لبعدنا عن فكرة التوحيد.

ولم يزل عقل محمد [منشغلاً، حتى ظهر هذا الفكر في كلامه على صور مختلفة، جاءت في القرآن، ومنها: (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) (سورة الإخلاص).

وكانت مترادفات اللغة العربية، تساعد محمداً [بمعانيها الرقيقة، على ترداد ذلك الفكر السامي، الذي دل عليه.

ومن تلك الأفكار، وهذه العبادة، تولدت كلمة الإسلام: (لا إله إلا الله).

ذلك هو أصل الاعتقاد بالله، بأنه فرد، ورب صمد، منزه عن النقائص، وهو اعتقاد يكاد العقل يتصوره.

وهذا اعتقاد قوي، يؤمن به المسلمون على الدوام، ويمتازون به على غيرهم من الشعوب والقبائل. وأولئك حقاً هم المؤمنون، كما يُسمون به أنفسهم!

ولقد يستحيل أن يكون هذا الاعتقاد وصل إلى النبي محمد [من مطالعة التوراة والإنجيل، إذ لو قرأ تلك الكتب لردها، لاحتوائها على مذهب التثليث، وهو مناقض لفطرته، ومخالف لوجدانه منذ خلق. فظهور هذا الاعتقاد بواسطته ـ في جزيرة العرب ـ دفعة واحدة، هو أعظم مظهر في حياته، كما أنه بذاته أكبر دليل على صدقه في رسالته، وأمانته في نبوته.

أما مسألة الوحي بالقرآن، فهي أكثر إشكالاً، وأكبر تعقيداً، لأن الباحثين لم يهتدوا إلى حلها حلاً مرضياً.

والعقل يحار كيف يتأتى أن تصدر تلك الآيات عن رجل أمي! وقد اعترف الشرق قاطبة بأنها آيات، يعجز فكر بني الإنسان عن الإتيان بمثلها لفظاً ومعنى. آيات لما سمعها عتبة بن ربيعة، حار في جمالها. وكفي رفيع عباراتها لإقناع عمر بن الخطاب، فآمن برب قائلها. وفاضت أعين النجاشي إمبراطور الحبشة بالدموع، حينما تلا عليه جعفر بن أبي طالب سورة مريم، وما جاء في ولادة يحيى. وصاح القسس عند النجاشي، بأن هذا الكلام وارد في موارد كلام عيسى.

قال ناقل هذه الرواية (كوزان دي بيرسوفال): (فلما كان اليوم الثاني، طلب النجاشي جعفر، وأشار إليه بتلاوة ما في القرآن عن المسيح ففعل، واستغرب الملك لما سمع أن المسيح عبدالله ورسوله، وروح منه نزل في أمه مريم، ثم تناول قضيباً دقيقاً كان أمامه، وقال لجعفر: إن الفرق بين ما سمعناه منك الآن عن عيسى، وبين ما تقوله ديانتنا عنه، لا يزيد عن سمك القضيب).

وقد قوي ذلك القضيب، فمنع الحبشة من الإسلام، وجعلها مسيحية إلى الآن، لكن نحن ـ معشر الغربيين ـ لا يسعنا أن نفقه معاني القرآن كما هي، لمخالفته لأفكارنا، ومغايرته لما ربيت عليه الأمم عندنا. غير أنه لا ينبغي أن يكون ذلك سبباً في معارضة تأثيره في عقول العرب.

ولقد أصاب جان جاك روسو حيث قال: (من الناس ـ يريد الأوروبيين ـ من يتعلم قليلاً من العربية، ثم يقرأ القرآن، ويضحك منه. ولو أنه سمع محمداً [يمليه على الناس، بتلك اللغة الفصحى الرقيقة (لغة القرآن، ونصه كما هو)، وبصوته المشع المقنع، الذي يطرب الآذان، ويؤثر في القلوب، والتفت إلى أنه (القرآن) كلما بدت أحكامه، أيدها محمد بقوة البيان، وما أوتي من بلاغة اللسان ـ لخر ساجداً على الأرض، وناداه قائلاً: أيها النبي. رسول الله! خذ بيدنا إلى مواقف الشرف والفخار، أو مواقع التهلكة والأخطار، فنحن من أجلك نود الموت أو الانتصار)!

قال (بولاتكيلير): (إني لأعترف بأنه من الصعب أن يظن الإنسان ـ ولا يتحير في أمره أن قوة الفصاحة الإنسانية تؤثر ذلك التأثير، خصوصاً وأنها تصدر عالية بغير ضعف قط، وتتجدد رفيعة معجزة، إذ تقصر دون تمثيلها رجال الأرض، وملائكة السماء).

وأشار إلى الآية التالية: {أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو} (هود: 13 ـ 14).

وكيف يعقل أن النبي [ألف هذا الكتاب باللغة الفصحى، مع أنها في الأزمان الوسطى كاللغة اللاتينية، ما كان يعقلها إلا القوم العالمون.

ولقد أعجب من أحد الكتّاب حيث يقول: (إن في القرآن أغلاطاً نحوية كثيرة، وإن تلك الأغلاط، جُعلت ـ فيما بعد ـ من جملة قواعد النحو، أو مستثنيات من قواعده).

وإنني أتعجب أي مصدر اعتمد عليه ذلك الكاتب فيما ادعى، مع أننا لم نعهد كتباً نحوية قبل الإسلام. ولو صح وجود شيء منها، فلابد أنه كان عزيزاً نادراً.

وقد شاهدنا أن أناساً ـ وما كان أكثرهم ـ أميين، قاموا في أمة العرب، وادعوا النبوة. منهم مسيلمة، الذي زعم أنه قرين محمد [، أتى بسورٍ، سخر العرب منها.

ولو لم يكن في القرآن غير بهاء معانيه، وجمال مبانيه، لكفي بذلك أن يستولي على الأفكار، ويأخذ بمجامع القلوب.

أتى محمد [بالقرآن، دليلاً على صدق رسالته، وهو لا يزال إلى يومنا هذا سراً من الأسرار، التي تعذر فك طلاسمها. ولن يسبر غور هذا السر المكنون، إلا من يصدق بأنه منزل من الله، اللهم إلا إذا اعتمدنا على قول ممجدي الديانة المسيحية، مما كنا نرتاح إليه أيام شبيبتنا، وهو يرجع إلى أن القرآن تأليف فاتح، أراد تأييد سلطته، فجمع من كتب اليهود والمسيحيين قانوناً، أودعه بعض قواعد الأدب والدين، وأضاف إليه قصص الوقائع العظيمة، لتأييد رسالته.

وعلى كل حال، أي سواء توصلنا إلى معرفة حقيقة القرآن، أم لا، فلا ينكر أحد أن مظهر محمد [كان مظهر نبوة بالفعل، بقطع النظر عن صدق تلك النبوة، وعدم صدقها، لأن النبوة من حيث هي: عبارة عن قيام رجل، يُملي على الناس أمر ربه، ويعتقد حقاً أن ما يقوله آتٍ من عند الله.

وهو تعريف أعلم أن المسيحيين لا يقبلونه، سواء كانوا من المتكلمين، أم الحكماء الباحثين، إلا أنني ما أردت به التوفيق بينهما، بل قصدت به تمهيداً للإيضاحات التي أريد أن أقدمها للقراء في عرض رسالتي.

وعلى ما تقدم أقول: إن لظهور النبوة سببين مختلفين، فإما أن تكون صادرة عن وحي سماوي، أو عن اتقاد في الذهن، واشتداد في حركة النفس الباطنية.

والمتأثر بأحد هذين السببين، ينفعل به قهراً غير مختار، فهو صادق على الحالين، وتكون النبوة حقيقة، أو كاذبة بحسب المؤثر فيها، فإن كان إلهياً، فالأول، وإلا فالثاني.

ولو رجعنا إلى ما وضَّحه الحكماء عن النبوة، ولم يقبله المتكلمون من المسيحيين، لأمكننا الوقوف على حالة مشيِّد دعائم الإسلام، وجزمنا بأنه لم يكن من المبتدعين، فمحمد [ـ كما قال (أيولد) ـ عن أنبياء بني إسرائيل ـ اعتقد أن روحاً من الله استولت على لبِّه، فلم يعد يشعر بأن له فكراً خاصاً، بل إنه أوتيه من عند ربه، واختفت في نظره أنانيته، ولم يعد يسمع غير صوت ذات فوق ذاته. ومن الصعب أن نقف على حقيقة سماعه لصوت جبريل عليه السلام: هل كان ذلك في الحلم، أو غيبوبة في عالم التصورات الإلهية؟

على أن معرفة هذه الحقيقة لا تغير نتيجة المسألة، لأن الصدق حاصل في كل حال.

كذلك لو قال قائل: إن القرآن ليس كلام الله، بل كلام محمد [، فلا بد لنا على الحالين، من الاعتراف بأن تلك الآيات البينات، لا تصدر عن مبتدع أبداً، خلافاً لرأي من ذهب إلى تكذيب نبوته. ولعل رأيهم جاء من ضيق اللغة التي تلجئنا إلى أن نرمي بالكذب نبياً، هو في الحقيقة شخص مُلِئ أمانة وصدقاً.

ولقد نعلم أن الصوت الذي كان يسمعه نبي المسلمين شبيه بالصوت الذي أيقظ إيوانس من قبله فقال له: {يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر} (المدثر).

فلما سمع ذلك، وتباطأ على هذا النداء، فضعفت صحته، واستولى عليه الهلع، كرجل يخاف أن يذهب لبه، ثم انتهى به الحال إلى أن صدع بأمر ربه، وجعل يبشر الناس، وحصل على شيء من الراحة وإن لم ينلها بتمامها، لأنه كان كثير التألم، كما يؤخذ ذلك من سورة هود، والقارعة، والحاقة.

ومن ذلك الحين، أخذت شفتاه تنطلق بألفاظ، بعضها أشد قوة، وأبعد مرمى من بعض، والأفكار تتدفق من فمه على الدوام، إلى أن يقف لسانه، ولا يطيعه الصوت، ولا يجد من الألفاظ ما يعبر به عن فكر قد ارتفع عن مدارك الإنسان، وسما عن أن يترجمه قلم، أو لسان.

وكانت تلك الانفعالات تظهر على وجهه بادية، فظن بعضهم أن به جنة، وهو رأي باطل، لأنه بدأ رسالته بعد الأربعين، ولم يشاهد عليه قبل ذلك اعتلال في الجسم، أو اضطراب في القوة المادية.

وليس من الناس، من عرف الناس جميع أحواله في حياته كلها مثل محمد [، فلقد وصل المحدثون عنه إلى أنهم كانوا يعدون الشعر الأبيض في لحيته، ولو كان مريضاً لما أخفي مرضه، مع أن المرض في مثل تلك الأحوال يعتبر أمراً سماوياً عند الشرقيين.

إذن، ليست حالة محمد [في انفعالاته وتأثراته بحالة ذي جنة، بل كانت حالته مثل التي قال نبي بني إسرائيل، في وصفها: (لقد شعرت بأن قلبي انكسر بين أضلعي، وارتعشت مني العظام، وصرت كالنشوان، وذلك لما قام بي من الشعور عند سماع صوت الله وأقواله المقدسة).

فثبت بهذا أن محمداً [ليس من المبتدعين، ولا من المنتحلين كتابهم، وليس هو نبي سلاب كما يقول مسيو (سايوس).

نعم، قد نرى تشابهاً بين القرآن والتوراة في بعض المواضع، إلا أن سببه ميسور المعرفة، ذلك أن محمداً [كان يلصق ديانة الإسلام بالديانتين المسيحية واليهودية، فالبحث مباح في ما إذا كان دينه صحيحاً، أو موضوعاً اتخذه ليؤيد به الحقيقة الدينية، من حيث هي، ولكن لا نسلم إنكار هذه الحقيقة، وحينئذ لا عجب إذا تشابهت تلك الكتب في بعض المواضع، خصوصاً إذا لاحظنا أن القرآن جاء ليتممها، كما أن النبي [خاتم الأنبياء والمرسلين.

والآن نلخص لك اعتقاد نبي المسلمين في الديانات الثلاث، فنقول: إن دين الأنبياء كان كله واحداً، فهم متحدون في المذهب، منذ آدم إلى محمد، وقد نزلت كتب سماوية، وهي.

والقرآن ينظر إليها نظرة واحدة، ونظرة محمداً [إلى عيسى، هي نفسها إلى موسى. ولكن الأمر الذي تهم معرفته، هو أن القرآن آخر كتاب سماوي ينزل للناس، وصاحبه خاتم الرسل، فلا كتاب بعد القرآن، ولا نبي بعد محمد [، ولن تجد بعده لكلمات الله تبديلاً.

إذا تقرر هذا، لم يعد هنالك وجه للاستغراب، من وجود بعض التشابه بين القرآن والتوراة، فمحمد كعيسى، قال بأنه بُعث ليتمم رسالة من قبله، لا ليبيدها، فلم يكن من أمره الابتعاد عمن تقدمه، ولذلك كان يصرّح على الدوام، بأنه يُعيد على الناس ما نزل على الأنبياء من قبله، وكان يسمع صوتاً من السماء يقول له: {إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق

ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داوود زبوراً ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً} (النساء:163). {وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون} (الأنبياء: 25). {وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون} (النحل:43).

على أن بعض المشابهات لا تحتاج إلى مثل هذا التفسير، إذ نفس محمد [كانت متأثرة بما تأثرت به نفوس الأنبياء من بني إسرائيل، وكان يعبد الله الذي عبدوه، فلا عجب إن تشابهت ألفاظ التضرعات، وتجانست أنواع الدعاء.

إذن، لا يمكن أن ننكر على محمد [في الدور الأول من حياته كمال إيمانه، وإخلاصه، وصدقه. أما في الدور الثاني، فلم يتزعزع الإيمان من قلبه مثقال ذرة، وما أوتيه من النصر، كان من شأنه أن يقويه على الإيمان، لولا أن الاعتقاد كله قد بلغ منه مبلغاً لا محل للزيادة فيه، ولم يكن فيه عيب، بل إن ما نسبوه إليه من هذا القبيل، لا يؤثر بشيء على سيرته الطاهرة.

إن محمداً [ما كان يميل إلى زخارف الدنيا، ولم يكن شحيحاً بخيلاً، بل كما قال أبو الفداء:

(كان يستدر اللبن من نعاجه بنفسه، ويجلس على التراب، ويرتق ثوبه ونعاله بيده، ويلبسها مرقعة مرتقة).

وكان قنوعاً، خرج من هذا الباب، كما رواه أبو هريرة، ولم يشبع من خبز الشعير مرة في حياته. (هذا هو النبي الذي قال عنه المنشدون من النصارى: إنه كان نهماً، يأتي المغيبات في الحانات)، تجرد من الطمع، وتمكن من نوال المقام الأعلى في بلاد العرب، ولكنه لم يجنح إلى الاستبداد فيها، فلم تكن له حاشية ـ ولم يتخذ وزيراً، ولا حشماً ـ وقد حاز المال والمعالي، وبلغ من السلطان منتهاه، ولكنه لم يكن له من علامات الإمارة والملك، سوى خاتم من الفضة، مكتوب عليه (محمد رسول الله).

ولم يكن فيه عيب، إلا كما خلق الله الإنسان،

(خلق الإنسان ضعيفاً، فلا يقوى على احتمال الرسالة الربانية زمناً طويلاً، ومن لم تطل مدة رسالته، فهو من البررة المعصومين).

ومع ذلك، فالبعض لا يعتقد بصدق رسالة النبي العربي [.

على أنه لو صح أنه كان فيه عيوب أكبر مما نُسب إليه، لما قدح ذلك في رسالته، لأن هبة النبوة، كمواهب الوحي، لا تستلزم حتماً خلو من اختص بها.

فلقد هفا داود مع بنت صابا، ونحن نعلم أن من ذريته المباركة أنبياء بني إسرائيل، وأن الله يُنزل حكمه آيات تحار فيها الأفكار، ومهما اجتهدنا في إدراك كل معنى من معانيه، فإنا به جاهلون، فلقد وعد ملوك بني إسرائيل أن يرسل المسيح من أصلابهم، ورأينا أن عيسى ولد على غير ما عهدوا.

على أن محمداً [كان يقول عن نفسه: إنه يخشى العذاب، ويسأل الله الغفران، وكم مرة شوهدت على وجهه علائم الهلع، وما به من هول رسالته، عندما كان يتلو على الناس آيات الفزع الأكبر!

هذا ما كان من صدق محمد [، وأمانته بعد بعثته، وأما أمانته قبل البعثة، فقد أسماه معاصروه بالأمين.

وأما حاله في بقية مدته، بعد أن صار رئيساً سياسياً، فالاستدلال عليه أدق، وأدعى إلى طول البحث والتنقيب، قال (رينارد دوزي): (يكاد أن يكون من المستحيل، الجزم بأن محمداً [كان في آخر حياته يعتقد بصدق رسالته، أما في الدور الأول، فاعتقاده وصدقه لا شك فيهما)!

والأدلة كثيرة من الجانبين، ووضع المسألة على هذه الكيفية، هو الذي فرَّق بين الباحثين، وانتصر كل حزب من المتطفلين لرأي رجحه، تبع أمياله، وما يشتهي، إلا أن الناقد المنصف، يجب عليه ألا يرجح قولاً على آخر، بدون ملاحظة القرائن التي تتبع الاثنين، ولكن الناس ـ كما وصفهم مسيو (مونور) ـ محتاجون إلى الإيقان والاعتقاد. وهم في احتياجهم هذا يميلون إلى من يلقي عليهم المسائل كأنها حقيقة ثابتة، ويمقتون من ينهاهم عن الاعتقاد بشيء، أو نفيه مطلقاً بغير تثبيت ولا دليل.

ولايزال هناك سبيل آخر للوصول إلى الحقيقة، أو القرب منها، ألا وهو علم النفس وحركاتها، وهذا العلم وإن لم يبلغ بعد الدرجة التي تزيل كل شبهة علقت بالأفكار، لكنه مع ذلك يوصلنا إلى الإيقان بأن من الأنبياء من لا يتيسر للباحثين أن يجزموا بشيء في أمرهم، كأن يؤكدوا أنهم صادقون، أو أنهم جروا في أعمالهم على ما يخالف الواقع وهم يعلمون، كما يفعل السياسيون.

وما من كاتب ولا باحث يستطيع أن يجزم بأن الإمبراطور كونستنتان الذي رفعه القسس مكاناً علياً في المعابد، واختصوه بالمواهب الإلهية، كان صادقاً بعد انتصاره في قنطرة (ميلفيوس).

ولكن محمداً [قاوم الوثنية بعزم واحد طول الحياة، ولم يتردد لحظة بينها، وبين عبادة الواحد الأحد، كما فعل الملك الروماني، وإيمانه كان حقاً ثابتاً على الدوام، لذلك لم تتغير حميته، ولم تفتر عزيمته، فقد انتهى كما بدأ، ولو أنه جال بفكره ساعة من زمانه شك في صدق رسالته، لكفي بنصره الدائم مزيلاً لهذه الغمة، ومؤيداً له في صحة صبوته، وصدق رسالته.

وفي الصدق درجات، فليتبينها الباحثون، وليفقهوها قبل أن يحكموا بالبدع وهم مخطئون.

ولقد عانى محمد [كثيراً من بني قومه، إذ كانوا منكرين، ولم يأخذهم على غرة منهم بعد أن صاروا مؤمنين، و قومه كانوا في استعمال أمانته من المتطرفين، ولئن أعجم لهم القول حيناً في مخاطبتهم، فذلك لأنه يعز وجود من يحب الحق، ولا تلجئه الحوادث إلى الإعجام، طلباً لتقريره في ذهن قوم جاحدين.

إن الذين ينكرون صدق محمد [في آخر حياته، لا يستطيعون أن ينكروا عليه أنه بقي إلى آخر لحظة منها نبياً رسولاً، شديد التمسك بدينه، وأنه فارق الدنيا موقناً بأداء رسالته، فلقد اتفق مؤرخو العرب طراً على الحوادث التي تخللت أيامه الأخيرة، وأورثونا عنهم ما كان من حركاته وسكناته، بقول واحد، ومعنى لا يتغير، مما يبرهن على صدق حديثهم، وأمانتهم في نقلهم.

ولولا زيغ المنشدين من النصارى، وكثرة تخيلهم لما قالوا:

(إن محمداً قد مات، تنهشه الخنازير، إذ وجدوه نشوان، وليس عنده معين، ولا نصير).

تلك جريمة لا تُغتفر.

ومما يستغرب له المطالع، أن يجد حكاية هذا الموت الفاضح في بعض الكتب. وهناك من زاد عليها أن المسلمين كرهوا لحم الخنزير من ذلك التاريخ.

فيجب إسدال ثوب النسيان على هذه الأقاصيص المحزنة، ولنقرأ كيفية وفاة النبي [في كتب المؤرخين الصادقين.

حيث أنه لما قرُبت المنية، خارت قواه، وخرج إلى الحج بمكة في شهر مارس سنة 632م، وهي حجة الوداع، وخطب في الناس على منبر المسجد الحرام، فقال:

رب إني أديت رسالتي وبلغت أمانتي اليوم. قال الله تعالى {اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً} (المائدة: 3).

ثم رجع إلى المدينة، وأقام ببيت عائشة ـ زوجته المصطفاة ـ برضا من زوجاته.

ولما أحس بقرب الأجل، ذكر الفقراء، فإنه لم يرغب طول حياته في المال، بل كان كلما اجتمع إليه شيء منه، أنفقه في الصدقات، وكان قد أعطى عائشة يسيراً لتحفظه، فلما حضره المرض أمر بإنفاقه على المعوزين لساعته، وغاب في سنة، ولما أفاق سألها: إن كانت أنفذت أمره، فأجابته: كلا، فأمر بالنقود، وأشار إلى العائلات المعوزات، فوزع عليهم، وقال:

(الآن استراح قلبي، فإنني كنت أخشى أن ألاقي ربي، وأنا أملك هذا المال).

وكان في مرضه يخرج كل يوم ليصلي بالناس، وآخر يوم خرج فيه، هو الثامن من شهر يونيو سنة 632م. وكانت مشيته مضطربة، فتوكأ على الفضل بن العباس، وعلي بن أبي طالب، وقصد منبر الخطابة، الذي كان يعظ الناس عليه قبل الصلاة، وحمد الله، وأثنى عليه، ثم خطب في المسلمين بصوت رفيع، سمعه من كان خارج المسجد، قال: (أيها الذين تسمعون قولي، إن كنت ضربت أحدكم على ظهره، فدونه ظهري فليضربهن، وإن كنت أسأت سمعة أحد، فلينتقم من سمعتي، وإن كنت سلبت أحداً ماله، فإليه مالي، فليقتص منه، وهو في حلٍ من غضبي، فإن الغل بعيد عن قلبي).

ثم نزل من المنبر، وصلى بالجماعة، ولما أراد الانصراف أمسك به رجل من إزاره وطلب منه ثلاثة دراهم ديناً له، فأداها على الفور قائلاً: (لخزي الدنيا، أهون من خزي الآخرة).

ثم دعا لمن حارب معه في أحد، وسأل الله لهم الرحمة والغفران.

وكان مشهد النبي [بين المؤمنين في ذلك اليوم مشهد جلال ووقار، والناس يلمحون على وجهه تأثير السم الذي شربه من يد يهودية خيبر، وقلوبهم منفطرة من الوجد عليه، ذلك أنه لما كان في واقعة خيبر، قدمت إليه يهودية ـ اسمها زينب ـ شاة مشوية، أضافت إليها سُماً، فأخذ منه النبي [قطعة واحدة بين شفتيه، وأحس بأنها مسمومة فألقاها، ثم لما حضرته الوفاة بعد حين كان يقول: (مازالت تعاودني أكلة خيبر).

وكان أبو بكر نفسه يبكي، ويقول للرسول [: (هلا افتدينا روحك بأرواحنا).

ثم أوصله الصحابة إلى بيت عائشة، واضطجع تعباً مهزولاً، وصار المرض يشتد عليه، فتخلف عن الصلاة بالمسلمين، وقيل له: قد جاء وقت الظهر، فأشار إلى أبي بكر ليصلي بالناس، فكان من وراء هذه الإشارة خلافة أبي بكر بعد النبي [.

وأخبرت عائشة (رضي الله عنها) عن حالة الاحتضار فقالت:

(كانت رأس رسول الله [مسندة إلى صدري، وبقربه قدر ماء، وكان يقوم ليضع فيها يده، ويمسح جبينه ويقول: (رب أعني على تحمل سكرات الموت، ادن مني يا جبريل! رب اغفر لي، واجمع بيني وبين أصحابي في الجنة). ثم ثقلت رأسه، ومال ثانية إلى صدري).

أما ما تركه [، فبيت بناه بيده، وبضع نياق آلت إلى بيت المال، لأنه [قال: (نحن معاشر الأنبياء لا نورث).

إلى هنا، نقصر القول عن ذات النبي [، فما أردنا أن نطيل فيها، إلا لنعرف حقيقة تلك النفس المتشبعة بالدين، إذ الدين يدعو إلى الدين، وكان من الوجود دقة البحث عن اعتقاده [، قبل أن نتبع دينه، كيف انتشر، ولا يزال ينتشر في الوجود.

خزعبلات الكنيسة وأكاذيبها

حول محمد والإسلام

ذهب البعض إلى أن السبب في كثرة الأقاصيص، والحكايات الخرافية التي ابتدعت عن آلهة المسلمين، هو تشعب طوائف ذلك الدين.

وهو تعليل غير مقبول، لأن تلك الطوائف لم تغير مطلقاً في مبدأ القرآن، وهو وحدانية الخالق، وما كانت إلا مذاهب، لكل منها نظر مخصوص في بعض مسائل التوحيد والمعقولات، كالبحث عن ذات الله، وكون القرآن قديماً أو حادثاً، والاختيار في الإنسان، وغيرها، وهي مسائل لا يشتغل بها القصاصون والشعراء.

ولست أريد أن أبيّن في هذا الموضوع، ما كان الناس يعتقدون فيما نسبوه إلى المسلمين من التماثيل والأوثان، مثل: (ماهومد)، و(أبوللون)، و(ترافاجان)، و(نوران)، و(مارجو)، وغيرها. وإنما أردت أن أجمع بعض ما كتب في تلك الأزمان من المقتطفات، التي يقف القارئ بواسطتها على أفكار أجدادنا في الإسلام ونبيه [. وهي أفكار من الغرابة بمكان، حتى أن من لا يهمه مثل هذا الموضوع، يرتاح لتلاوة هاتيك القصص والأشعار، مما يُنسى معه الموضوع الذي كتب فيه.

فمن تلك المقتطفات، ما شاع في جميع الأزمان عند الفرنسيين، حتى قبل الحروب الصليبية، من أن النزاع بين النصرانية والوثنية (يشير إلى الإسلام)!، يفضي إلى حرب ، وقد جعلوا لتلك الحرب أشكالاً متنوعة، نتيجتها كلها: ظهور المسيحي على الوثني، ووصفوا تلك الحروب بأوصاف مختلفة، تتناوب فيها الضربات، وتني الأجسام تحت السياط، وتتبادل النبال، ويحتدم القتال إلى أن ينتهي بضربة عاتية، وهجمة قاسية، فينفذ السيف في الأجسام.

وفي أثناء هذه الحرب العوان، يتناقش الخصمان في علم اللاهوت الأعلى، وكل يقدم دليله الأقوى، ويقابلان بين دين المسيح، ودين محمد، ويميل الواحد منهما إلى إقناع الآخر بصحة دينه، وصدق إيمانه.

ومن هذا القبيل، ما جرى بين (غليوم دورانج)، المسمى غليوم ذو الأنف القصير، و(قرصوط) المسلم، صاحب الطول الهاشمي، وهو بيت القصيد، في رواية تتويج الملك لويس، وهو أيضاً قسم من قصة مطولة، يقال لها قصة (غليوم دورانج)، وتحتوي على ثمانية عشر فرعاً، وعدد أبياتها مائة وسبعة عشر ألفاً وثلاثمائة، وفيها وصف المسلمين وأخلاقهم ودينهم.

ذكر صاحبها أن الملك شارلمان، أرسل غليوم في أمر إلى البابا، فذهب إلى روما في أربعين فارساً، وبينما هو يزور قبر القديس بطرس، القريب من قبر (تيرون)، وهو أحد آلهة المسلمين في بعض القصص ـ انتشر خبر قدوم المسلمين بعد انتصارهم (في 1 يوليو)، فحزن الناس أجمعون، وجمع البابا على عجل جيشاً، أسلم قيادته إلى غليوم.

وبعد قليل، أقبل جيش المسلمين، حتى صار على أبواب المدينة، فتقدم جيش غليوم نحوه، واصطف الجيشان للطعان، والضرب والنزال، ثم تشاور الرؤساء في أمرهم، وقر قرارهم على أن يقتتل الرئيسان، والفريقان يشهدان، فمن غلب فجيشه الظافر، وخصمه هو المكابر الكافر.

هنالك برز الفارسان وسط الجموع، وشخصت نحوهما الأبصار، وجعل الشاعر يقص ما كان من أمرهما، بكلام يشغل الأفكار، ووصف يستوقف الأبصار، فإذا ارتعدت فرائص غليوم، ضج المسيحيون وهاجوا، وانهار البابا، ونزل بقلبه الهلع الأكبر، وصاح المسلمون بأصوات الفرح والتهليل، وإذا أصاب (قرصوط) جرحا من خصمه، انقلب الفرح بكاء، وتبدل الحزن ابتهاجاً.

وكان قرصوط لابساً درقة من الزرد، متقلداً بالفولاذ، مستعلياً ظهر جواد، الله أكبر، ما أعظمه!

وأما غليوم، فلم يشأ الشاعر أن يصف لنا لباسه وعدته، بل ذهب إلى البابا، فأحضر إليه أثراً من آثار الرسول بطرس، وهو ذراع له محفوظ في غمد ثمين، ثم أخرجه من غمده، وسلمه إليه، فجعل يمس به جميع أعضاء جسمه، إلا نصف أنفه.

ثم تقدم (قرصوط) نحو خصمه، فلما رآه غليوم مقبلاً، ترجل عن جواده، وجعل ينشد الأشعار، ويقص التاريخ والأخبار، إلى أن وصل إلى خلق الليل والنهار، وكيف تكونت الأرض والأنهار، وارتفعت السموات عن البحار.

واستمر الشاعر يروي هذا الخبر حتى كتب ثمانين بيتاً من الأشعار، ثم انتهى بالتضرع إلى المسيح، فقال له: إن صح أنك مت ثم حييت، فاحفظ غليوم!

ولكن الهاشمي رأى الدعاء طويلاً، فسأل خصمه عن السبب، وهنالك رأى الناس العجب، وصار كل ينادي بالويل والثبور، ويستنزل فوق رأس عدوه عظائم الأمور.

ثم طلب إلى غليوم أن يعرف نفسه، فأطال الجواب في ذكر أسمائه وألقابه، وأسماء عائلته ونعوتها، وفي بيان حربهم وما فعلوا، وأنهم فتكوا بالمسلمين والسلافيين، وختم جوابه بقوله: فما بلغوا شأونا، وما كانوا قط مثلنا.

فغضب قرصوط، وحملق بعينيه، وحرك حاجبيه، وحمل على خصمه بكلام طويل، وقول ثقيل، ثم جعل يمجد الله، ويثني عليه، ويستنزل معونته، ويكل الأمر إليه.

وبعد ذلك، اشتبك القتال، وابتدأ الطعن والنزال، وكلما كلت السواعد، قامت قيامة الجدال، وتوالت الحجج والشواهد.

وفي إحدى هذه الفواصل، جعل غليوم يبين لخصمه حقوق الملك شارلمان على (روما)، و(توسكان)، و(كالابره)، ويشرح له سيادة البابا السياسية.

ثم حمل عليه قرصوط، فكاد ينزل به الموت الأحمر، وانخلعت قلوب النصارى، وضاعفوا الدعاء والابتهال، ورفع البابا يديه إلى السماء، طالباً أن يعود غليوم إلى روما سالماً غانماً، فاشتد ساعد رجلهم، وفوت إلى قرصوط طعنة في صدره، فخرج السيف يلمع من ظهره.

قال الشاعر: ولكنه ما برح مالكاً لقواه، ولو كانت الضربة في غيره لأعدمته الحياة، ولما أحس بالألم، انحاز إلى جهة، وجعل يفكر في الذي خط القلم.

وأما غليوم، فرجع إلى الدعاء والاستنجاد، وعاد إلى خلق البلاد والعباد، وذكر العهدين الجديد والقديم، ودخول عيسى أورشليم، ونجاة يوحنا، وتنصر بولس الرسول، وتوبة (مادلين).

وبعد ذلك، رجع البطلان يقتتلان، فناول قرصوط خصمه ضربة بسيفه البتار، أطاحت نصف أنفه، فغاب عن الأبصار، هنالك يئس النصارى، وأصبحوا في أمرهم حيارى، وسأل الباب ربه أن يعين شجاعهم، وأن يجفف دموعهم.

وبينما الناس يصيحون، وبالدعاء إلى الله يتضرعون، إذ سكت الجميع لهول موقف المتحاربين، وقد حان الحين، وزعق غراب البين، وحمل الهاشمي على خصمه، وناوله الضربة، فمال عنها، وارتد إليه بمثلها أطاحت رأسه، وسال الدم، فسكن العدو رمسه، وصاح غليوم منتصراً: لقد أخذت بثأر أنفي، واحتاط به أهل روما وهنأوه، وجاءه الأشراف من قومه، ليسألوه عن صحته وسلامته.

ومن المقتطفات قصة (فارس البجعة)، ويقال: إنها أولى قصائد الحروب الصليبية، وهي لـ (حنا رونو)، ألفها في القرن الثاني عشر، ومدارها أن والدة (قربران) ملك أورشليم، ذهبت إلى القرشي محمد لتستطلع الأخبار، فنبأها بحضور الصليبيين، وأن أورشليم تقع في يد (جودفروا دبويون)، وقد نشرت هذه القصة أول مرة في بروكسل سنة 1846م.

ومنها قصة الأسرى، وتعزى إلى غليوم التاسع أمير (بواتييه)، ألفها في القرن الثاني عشر، ومبناها أن (ريكاردو كومون)، تقاتل مع رئيسين من رؤساء المسلمين، هما (غلياس)، و(مورغالي)، أي الأمير خالد، فقتل غلياس، وجرح مورغالي جرحاً بليغاً، فأقر بأنه غلب، وطلب من ريكارد أن يعمده، ثم يجهز عليه بقطع رأسه.

وحول أورشليم القدس يقول ذي جودفروا في السهل كوكبة من الفرسان، فانقض عليها، فلما قرب منهم سألهم إن كانوا مسلمين، أو نصارى، قائلاً: يا هؤلاء! أي القوم أنتم؟ تؤمنون بالله العظيم ابن مريم، قدس اسمها، صاحب الشرف الأعلى، شديد القوى؟ أم تؤمنون بأبوللون، وماهون، وترفاجان، أولئك الأصنام، قبحت سيرتهم، الذين يعبدهم الأعاجم.

وجاء فيها: أن اثنين من قادة المسلمين أُسرا في أثناء حصار المدينة، فحاول جودفروا أن ينصرهما، وأن (صوقومان) سلطان المسلمين جرح جرحاً بليغاً، فصار يستغيث بمحمد، وأبوللون.

ومن القصص التي ملأت الأسماع في كل زمان أن محمداً لما مات، وضع في صندوق، وكانوا يعتقدون أن ذلك الصندوق من المغناطيس الأصلي، وأنه معلق بين الأرض والسماء، تحت قبة مغطاة بالحديد، والأمير يحرسه بمائة وخمسين ألف فارس، وأن (صودان)، يراد به السلطان، أي ملك المسلمين، طلب من الحبر بطرس أن يعتنق الإسلام، وأظهر الحبر أنه يميل إلى ترك النصرانية، فأمر القائد بإحضار الصنم محمد ليسلم أمامه، وأن جودفروا أسر أحد القادة، وطلب منه أن يتنصر، فأبى وقال: إنه لا يعبد إلهاً شنقته اليهود.

قصة بودوان دوسبور

ومن خزعبلات القرن الرابع عشر خروج الكونتس دي يونتيو، وهي أول ما جاء في قصة صلاح الدين، وأنها صارت زوجة له، وولدت له ولداً، هو ذاك صلاح الدين الشهير، الذي كان الطامة الكبرى على النصرانية، وأنها استولت عليه وصارت صاحبة الكلمة النافذة عنده، بما اتخذته معه من الحيلة والملاطفة، وهي التي طلبت منه أن يسمح بحضور أخيها الكونت دي يونتيو، وتعهدت له أنها تحمله على ترك النصرانية، فأجاب سؤلها، وقد حكى الشاعر سفر الكونت طويلاً.

وأما صلاح الدين، فذكره موجود في جميع أناشيد ذلك العصر الفرنسية واللاتينية، وتراه في إحدى الروايات يتناقش في الديانات، وأعظم عيب عاب به النصرانية عبادة البابا، ومسألة الاعتراف.

وفي رواية (جيل دو كوربيل)، لولا ما شاهده صلاح الدين من اختلال حال القسس، لاعتنق النصرانية، وكتب طبيب الملك (فيليب أوغست) هجواً مؤلماً في هذا الموضوع ضد القسس، سماه الطب المقدس للقسس.

ومنها قصة شاعر ريمس، يؤكد هذا الشاعر أن صلاح الدين اعتنق النصرانية في مرض موته، وقد قص قصته طويلاً، وعزاها إلى عم ذلك الملك.

ومنها قصة المرور في الأرض المقدسة، وهي لعمانويل الكندي، يقول فيها: إنه أقام أياماً بمصر، وببعض مدن الوثنيين الأخرى ـ يعني المسلمين ـ وخالطهم كثيراً، وكان قومه يعتبرون رأيه في المسلمين ودينهم قال: لما كانت الصدف تجمعني برجل منهم، لم يكن ذا شر وضر، كنت أتجاسر على سؤاله عن الإسلام، وهل نزل فيه شيء من التعاليم النفسية؟ فكان يقول لي: لم يأتنا بشيء من ذلك، بل كله متعلق باللذة الجسمانية، ولذلك يُسمى بدين الجاموس والجمال، وجميع الحيوانات الأخرى!

وقد حكى هذا المؤلف سبباً غريباً لتحريم المسكرات، فذكر أن محمداً خرج من مكة في نفر من نصحائه إلى المدينة، وكان معه راهب يستشيره على الدوام، فالراهب يميل به إلى الديانة المسيحية، وأخصاؤه يميلون إلى الدين الإسلامي، وكان النبي أكثر تعلقاً بالراهب، فغضبوا غضباً شديداً، وفكروا في الذي يفعلون، وكانوا ينامون خارج مضرب اختص هو به مع الراهب، فاتفق ذات يوم أن محمداً ذهب إلى حانوت خمر، وشرب كثيراً حتى أتى نشوان ونام، فأجمعوا أمرهم على قتل صاحبه، ودخل أحدهم واستل سيف النبي من غمده، وقطع به رأس الراهب، ثم أرجعه مكانه وانصرف.

ولما أفاق محمد في الصباح، ورأى صاحبه مقتولاً، أخذه الغضب جداً، وشدد في معرفة الفاعل، فقالوا له: إنك ذهبت بالأمس فغبت عنا طويلاً، ورجعت سكران، فأخذت سيفك بيمينك، وقمت بيننا متهيجاً، فظننا أنك تريد قتل واحد منا، وخشينا أن نقرب منك، ثم عمدت إلى الراهب فقتلته، وأرجعت سيفك إلى غمده في الحال، وهو لا يزال مخضباً بالدماء، فاعتقد صحة ما قالوا، وحلفوا جميعاً: أنهم لا يشربون الخمر أبداً، ومن هنا حرم الخمر، خوفاً لا تعبداً، وهم أي الوثنيون (يعني المسلمين)، أينما وجدوا الخمر يغرقون فيه!

وهكذا انصرف محمد عن المسيحية، ومال إلى تلك الديانة البهيمية!

ومنها قصة الغزوة الكبرى ـ وهي لمجهول وعنوانها: (محمد والحيل التي استعملها ليغش العرب والبلاد الأخرى). وقد جاء فيها وصف النبي [، وبيان حاله على ما كان معتقداً تلك الأيام، قال المؤلف: (ظهر محمد في زمن الإمبراطور هيرقليوس، وهو مبتدع كذوب خوان، تظاهر بالزهد والتقشف في المعيشة، وادعى أنه نبي مرسل من الله، فافتتنت به العرب، ثم الأقاليم الشرقية الأخرى، ولكي يجعل له ذكراً

دائماً، ويخلد اسمه، ويوسع نطاق مملكته، ويديم عمله الشيطاني، وينشر دينه الطاغوتي ، قرر أنه ليس من حاجة بعده لواعظ أو مرشد في الدين، وجعل قاعدته استعمال السيف، كمن يهمز جواداً استعد من قبل إلى العدو، وبذلك أدخل أمماً كثيرة في مذهبه، وقد كانت عدواه أشد مصيبة من عدوى المسيخ الدجال، ولم ينمحي أثرها إلا إذا عظمت قوة الإمبراطور، وأمكنه أن يأمر قومه بالتمسك بأهداب النصرانية، وإلا عاقبهم بالإعدام، ثم انتهى بهم الحال ـ أي المسلمين- فترفعوا عن الرجوع إلى الحق، ولم يمتثلوا أوامر الخالق المعبود).

ومنها قصة جيبير دي نوجان ، وقد نقل في تاريخه عن قومه، أفكارهم وآراءهم في محمد والإسلام، قال: تعتقد الأمة أنه ظهر في غابر الأزمان رجل اسمه محمد، أضل الناس عن الاعتقاد بالابن وروح القدس، وعلمهم أن كل شيء آتٍ بقدرة الآب، الله الواحد الذي خلق الخلق، وأن عيسى لم يكن إلا بشرا، ومن فروض دينه الختان، فأرخى بذلك للناس عنان الشهوات.

فجاء تنكريد صاحب الأمر في بيت الله، فقال: كيف يكون لعبد (براطون) وجود في معبد الرب، كما لو كان هو الرب؟ ثم التفت إلى جماعته، وقال لهم: هيا اصعدوا من فوركم، فألقوه في الحضيض، لقد أراد الله أن يكون كما أمرت، لأنه قائم أمام الناظرين بوقاحة، كأنه يريد أن يقوم مقام الله، فانقضوا عليه وجذبوه، وقلبوه وهشموه، وجعلوه إرباً، وقعطوا ذلك المعدن الثمين في ذاته، الحقير في صورته، فصار ثميناً بعد أن كان حقيراً.

وكان على جوانب المعبد عصابة من الفضة الخالصة، وضعت تمجيداً لمحمد، عرضها ذراع، وسمكها كالإصبع، وزنتها سبعة آلاف مارك، ورأى تنكريد بحكمته أنه لا فائدة في بقاء هذه الفضة بغير استعمال، فكسى منها الفقراء، وأطعم الجياع، وسلح جنداً جديداً، فزاد في قوته.

ويوجد في المعبد أيضاً خمسمائة حوض من الفضة، كانت مخصصة كلها لخدمة ذلك الصنم، فيها كثير من آنية الفضة المختلفة الأشكال، فأخذها تنكريد، وكانت حيطان المعبد مغطاة بالأحجار، وبعضها بالذهب والفضة، فنزع تنكريد كل ذلك، وجلبه إلى بلده، ثم استخرجت الأشياء الثمينة التي كانت مدخرة منذ زمن طويل، وعرضت على الناس، وبعدها سلمت إلى تنكريد.

ومنها قصة سفر (لودوف دي سودهم) إلى الأرض المقدسة، أُلفت سنة 1342م، ولودوف سائح ألماني، جاء في رحلته عن محمد [والمسلمين ما يلي:

اعلموا أنه في سنة 620 من تاريخ الرب، جاء الشيطان بإذن الله، ونشر بدعة المحمديين بالطريقة التالية: فأولاً فتن الحبر سرجيوس، الذي كان من طائفة القديس (بنوا)، وطُرد منها لاعتناقه بدعة (نسطريوس). وبعد أن فتنه أنفذه إلى مقام الملك في روما، لينال بعض الوظائف الدينية، ولما لم ينل مراده، ويئس من النجاح، قفل إلى بلاد العرب، ونزل في بني هاجر، وهم بنو إسماعيل، الذين سمُّوا أنفسهم (سرازيين)، تفاخراً بسارة التي كانت بنت إسماعيل، ولكن هذا الاسم لا يليق بهم، ويجب أن يطلق عليهم عنوان (الماغومديين)، أي المحمديين، تبعاً لاسم ماغومد الذي اغترت به تلك الطوائف الخشنة، التي تسكن الصحراء.

ولما صار سرجيوس المذكور في تلك البلاد، وجد رجلاً جاهلاً أحمق، اسمه ماغومد، وأثر عليه حتى اعتقد في نفسه أنه نبي، ووضع له بعض البقول في أذنه اليمنى، وعلم حمامة فصارت تأتي كل يوم فتقف على كتفه، وتلتقط الحب منها، ثم جعل سرجيوس يدعو في الناس، بأن الله اختار بني هاجر ـ وكانوا في ذلك الحين أحقر الأمم ـ وأراد أن يُخرج من بينهم نبي من الأنبياء، وأن روح القدس سيناجيه أمام الناس في صورة حمامة، فصدقوا.

ولما صار ماغومد وسطهم، أطلق سرجيوس الحمامة، وكانت على شغب فطارت إلى كتفه، وجعلت تلتقط الحب من أذنه، فأشار إليه سرجيوس أنه هو النبي المرسل من قبل الله لأمته، ولم يكن أحد يعرف ماغومد، وهو نفسه ما كان يعرف عائلته، بل وجدوه لقيطاً في الصحراء، فآواه بعض الأعراب، وربوه حتى صار من رعاة الإبل، ولكونه كان مجهولاً عند الناس، ظنوا أنه نزل من السماء.

ثم انتشر أمره جداً، حتى صار الناس يفدون عليه في كل يوم من أقاصي البلاد، وعند ذلك اجتهد سرجيوس في إقناع امرأة من العرب اسمها (كندوكاجيا) (خديجة)، فتزوجت ماغومد.

واستعمل ماغومد الغلظة والغش، حتى أخضع الأمة بتمامها لسلطته، ثم أصابه داء الضرع انتقاماً من عند الله، وكان كلما انتابه الدور يقول: إن السبب في تألمه ناشئ من محادثته مع ملك من الملائكة.

ومن ذلك الحين أخذ في سن القوانين المنجسة، وتأليف الكتاب المسمى التريان (القرآن)، فكتبه هو بإملاء سرجيوس، لأنه كان مجرداً عن كل تربية وتعليم.

وهذا ما كتبه في أول ذلك الكتاب التريان:

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله خالق الأمة. الذي أوجدنا، وهدانا إلى الصراط المستقيم، إلا الفحش وقلة الحياء.

ولا أظن أن ظهوره كان في زمن بعيد عنا، لأني لم أجد رجلاً واحداً من رجال الكنائس تعرض لرد مذهبه الدنيء، ولم أقرأ في كتاب شيئاً عن حياة ذلك الرجل، وكيف كان يعيش، ولذلك أراني مضطراً إلى الأخذ عن الذين سمعت ذلك منهم، ومن التافه أن نبحث عن معرفة صحيح هذا التاريخ من فاسده، إذ غرضنا أن نبين كيف أنه كان عظيماً! وكم من حادث عظيم، خلد له ذكراً! والكاتب في أمان من الخطأ، إن أساء القول في رجل فاق شره وصف الواصفين.

ومنها قصة الحرب الصليبية الأولى ـ لمؤلفها (تويبوف). وقد أتمها رجل مجهول، وفيها يذكر ذلك المجهول دخول الصليبيين إلى القدس، وأول من دخلها هو (تنكريد دي سيسيل)، وكان أول همه أن أسرع إلى المعبد فدخله، ثم جعل المؤلف يصف اندهاش القائد، لما رأى أن صورة محمد موضوعة مكان صورة المسيح.

قال المؤلف: ثم فتحت أبواب المعبد، وكان أول من دخله تنكريد، فرأى صنم محمد من الفضة، وهو مصبوب، وموضوع على قاعدة مرتفعة، ثقيلة الوزن بحيث لا يحركه ستة من الأقوياء إلا بالمشقة، وقلما يكفي عشرة رجال لحمله، فأمعن تنكريد النظر فيه وصاح: يا للعار! ما معنى هذه الصورة التي أراها موضوعة في هذا المكان الرفيع؟! وما المراد منها؟! وما تلك الأحجار الكريمة؟! وما هذا الذهب الوهاج، وهذا الأرجوان (لأن محمداً كان متقلداً جميع حلاه)؟! أهذه صورة المسيح؟ كلا، لأن المسيح لما صُلب على الخشبة، كانت رجلاه ممسوكتين بالمسامير، وضُرب بالرمح في جنبه، إذن هذا ليس هو المسيح، إن هذا إلا المرذول محمد، أول أعداء المسيح، وهو المسيخ، ولقد كنت أتمنى أن المسيح الثاني، الذي قيل إنه سيظهر في مستقبل الأيام، يكون بجانب هذا، لأدوسهما تحت أقدامي، واكرباه! هذا محمد المعذب في الجحيم! كيف يظهر عليه في هذه الصورة؟! إنه من الذين غضب عليهم، فجعلهم من الملعونين.

قال الراوي: ونقل محمد في هذا الكتاب كثيراً عن كتاب موسى والإنجيل، وترجم كثيراً من النصوص باللفظ، مع أن المعاني خفية مجازية، وفيها كثير من التشبيهات الفارغة، التي لا يمكن تصورها، فمنها ما كتبه عن المسيح:

(نحن نعلم جيداً مَن هو عيسى ابن مريم، الرجل القديس الذي خلق من روح القدس في أحشاء أمه، وجاء بالكتاب للنصارى، وكما أنه نسخ شريعة موسى في اليهود، فقد بعثنا الله لنصلح شريعة عيسى).

وجاء فيه أيضاً:

(إن اليهود صلبوا عيسى، ولكنه لم يتألم في الحقيقة، وإن حياته بعد ذلك مخترعة).

والماغومديون يعتقدون ذلك.

وفيه أيضاً:

(إن عيسى ليس ابن الله، ولكنه رجل صالح رفع إلى السماء، ودرجته فوق جميع الناس إلا ماغومد).

كل هذا في التريان.

وعلى هذا يعتقد الماغومديون في الله القاهر، وفي كتابه، وفي ماغومد، وفي القديس ميخائيل (ميكائيل رئيس الملائكة)، الذي يعترفون إليه ليلاً بذنوبهم في الجبال، ولهم خمسة أعياد، يصومون فيها إلى المساء، ولكنهم يسترجعون جميع قواهم في الليل، وهكذا يفعلون في كل صوم، ولهم عيد سادس، جعلوه للشعرى اليمانية، التي يعبدونها أيضاً، ويختتنون ولا يأكلون لحم الخنزير كاليهود، ويكتسون ويحلقون، ويركعون كالرهبان، ويجوز لهم سبع من النساء، بل أكثر من ذلك، ويطلقون من لا يريدون من بينهن كالوثنيين، ولذلك فكثير منهن يقتلن بعضهن بالسم، لحقدهن وغيرتهن، وفي الرجال حدة وشهوة، يأتون الذكر، وليس في قدرتهم أن يقوموا بواجب امرأة واحدة، ومع ذلك يتزوجون بعدد كثير، ولذلك فهم في الغالب يموتون بالسم من نسائهم، ولهذه الأسباب كلها ينقطع نسلهم، وإن كانوا منهمكين في اللذائذ الجسمانية.

هذا كل ما علمهم إياه ماغومد الختال، النذل المرذول، وأمر باتباعه.

ولبني سارة في بلادهم قضاة وأساقفة، يأمرون قسسهم المحقرين، وقد زعم أحد القضاة أنهم من أولاد القسيسين، وفي الواقع أصلهم كذلك، ويشتد أولئك القضاة جداً على النصارى، إذا تقدمت إليهم شكوى ضدهم، بأنهم دخلوا الكنائس الإسلامية، أو حضروا إقامة شعائر ذلك الدين، أو سبوا ماغومد، فيحكمون عليهم أن يقطع الواحد منهم أربعاً.

ثم ختم المؤلف رحلته بقصة موت محمد فقال:

أما ما تجب معرفته عن وفاة ماغومد، فهو أنه بعد أن حكم سبع سنين في بلاد العرب، دست له امرأته السم، لأنه كان قذراً مصروعاً، وبينما هو ذات يوم في الصحراء منفرداً كعادته، إذ تحرك عليه السم، فوقع ميتاً بعيداً عن الناس، ونهشت جثته الذئاب والضواري، وقيل في بعض الروايات: إن الخنازير الوحشية أكلته، ولم يجدوا شيئاً من أثره، إذ ما ترك الذئاب إلا ملابسه، ولا صحة لما يقوله المسلمون من أن عظامه جُمعت، ودفنت في مدينة مكة، وأنها معلقة في الهواء ـ كما حققه بعضهم ممن تنصروا ـ وكانوا قد زاروا ذلك المعبد، ولم يروا فيه صندوقاً، وليلاحظ أن المسلمين الذين يذهبون إلى الحج، ويصلون في مكة يعتقدون أن فيها قبر ماغومد، ومع ذلك يقولون: إن هناك أول معبد لآدم، وإن ماغومد أمر بالصلاة فيه، ومتى ذهبوا إلى ذلك المكان لا يفعلون شيئاً، سوى رمي المعبد بالحجارة، ليرجموا الشيطان.

ومنها رسائل (ريكولدو)، وهو قس من الطليان، توفي سنة 1320م، وفي تلك الرسائل بيان في الديانة الإسلامية، وقد اشتد حزن المؤلف وغضبه من وجود تلك الطائفة اللعينة، وكان يكثر من مناجاة ربه، وإظهار الضجر والتوجع من ذلك إليه.

جاء في إحدى رسائله:

ويعتقد بنو سارة أنهم ناجون بواسطة غشومهم اللعين محمد، الذي توسل بالعسف والخبث إلى إقناعهم بنبوته، وأولئك الذين يؤمنون بمثل هذا الرجل، لا يقال لهم بنو سارة، بل مسلمون، أي ناجين.

وإني لا أذكر لكم كل ما جاء في ذلك الدين، بل أقتصر على أمرين: الأول أن محمداً يجتهد في إبادة التثليث المقدس تماماً، الذي هو دينكم، لأنه ينفي الابن عن الآب، وينفي الآب عن الابن، وينفي روح القدس عنهما، ودليله ما قرأته عليكم باللغة العربية في القرآن، وما يريد إثباته في عدة آيات وجملة مواضع، ويجعله الدليل القاطع من أنه يستحيل على الله أن يكون له ولد، لأنه لم يكن له امرأة.

ومعلوم أن من أنكر الابن، فقد أنكر الآب، وإذا انتفي الابن والآب، فلا وجود لروح القدس، كذلك قرأت في موضع آخر من القرآن: (إن الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك) (النساء: 48).

وقرأت أيضاً فيه: أن الله يصلي على محمد.

ويؤخذ من رسالة أخرى، أن المؤلف كان يستغيث بالقديسين والقديسات، ثم يستنجد أخيراً بالقديس (دومنيك)، والقديس (فرنسوا)، ويأخذه العجب من أنهما لم يتمكنا من التغلب على عدوه، قال: ومن هو عدوي، هو محمد ذلك المجرم، ذلك الختال، ذلك الكافر بالله وبالتوراة المقدسة.

نعم، إني لأعجب من أنكما وحدكما لم تمحياه بعد من الوجود! أناجيك أيتها القديسة مريم مدلين! يا صاحبة المسيح المصطفاة! واستنجد بحولك ضد محمد، وبني سارة المحمديين، لأنك تعلمين أيتها السيدة المقدسة، أني وجدت كنيستك الجميلة، التي أقامها المسيحيون لخدمتك في (مجدلة)، قد جعلها بنو سارة مربطاً للبهائم، وصارت مسكناً لأقذر الحيوانات، كذلك كنيستك اللطيفة، التي بناها لك المسيحيون في بطنية، وهي التي ازدرف فيها المسيح دموع الإلهي، وأحيا أخاك العازار من قبره، وجدتها ملطخة بالأقذار، وصارت مربطاً للحيوانات الوحشية.

يا أسيادنا! ألا يمكنكم أن تساعدوا المسيحيين على المحمديين؟ أو أنكم لا تريدون ذلك؟! أني أعتقد بأنه يمكنكم، ولكن لا تريدون، إلا إذا صح أنكم صرتم من بني سارة (مسلمين)، لأن من المحقق في جميع أنحاء الشرق، أن القرآن كلام الله، فمن المحقق والمؤكد، والذي لا شك فيه أبداً، أنكم صرتم دعاة مسلمين، ومقلدين لمحمد، ذلك لأني قرأت في الفصل الثالث من القرآن: أن عيسى ابن مريم لما رأى البدع فشت في بنيه، سأل عمن ينصر الله، فأجابه الرسل، وكانت هذه الدعوة قد أصلحت ما بهم: نحن نصراء ابن الله: نحن مخلصون ، ونشهد بأننا مسلمون، وأننا مقلدون لمحمد.

ومنها سياحة أمير (أمير انجلور) ـ التي كانت سنة 1295م مسيحية، ذكر فيها ما يلي:

سرنا يوم الأحد 31 أكتوبر طول النهار، ومشينا يوم الاثنين، وهو يوم عيد القديسين، حتى اقتربنا من حنفية السلطان، فمررنا أمامها، وأقمنا على بعد فرسخين منها، والعادة أن جميع الحجاج يحطون خيامهم قريباً من تلك الحنفية، ليقتلوا الهجير بالماء البارد، لأنه منذ الخروج من غزة، لا يوجد ماء صالح للشرب إلا من حنفية السلطان، والسبب في عدم اقترابنا منها، هو أنه كان يوجد حولها عشرة آلاف من المسلمين، قادمين من مكة، وجالسين هناك ليترطبوا بمائها، وكان كل واحد منهم يلبس لباس بلده، وكلهم يعبدون سيدهم النبي محمد.

والمسافة بين مكة والقاهرة مسيرة خمسين يوماً في الصحراء، وعلى ما يقال: إن مكة مدينة كبيرة جداً، وهي أيضاً مدخل الهند، وحقق لنا بعضهم أن في القاهرة المذكورة اثني عشرألف كنيسة لأولاد سارة، يقال لها مساجد، وفيها يقرؤون صلواتهم، ويتعبدون.

واعلموا أيضاً: أنهم أكدوا لنا أنه كما يوجد في القاهرة اثنا عشر ألف مسجد، فإن فيها اثنا عشر ألف حمام، لكل مسجد حمام، ويقولون: إن كل مسلم لا يجوز له أن يسمع التلاوة إلا إذا كان طاهراً، وكلما اختلى بحله، وجب عليه الغسل، ولهذا، فإن الناس يغتسلون كثيراً في تلك الحمامات، وخصوصاً الأغنياء، والفقراء يغتسلون في اليم، واعلموا أننا رأيناهم يغتسلون عراة، بغير أدب ولا احتشام أمام الناس.

ومنها أخبار القديس (دينيس)، وفيها يقص المتحدث: أن مدينة دمياط، استخلصت من رجال ملك فرنسا سنة 1249م، ويخبر بإبادة الأصنام الإسلامية، حيث يقول: وقد تقدم الرسول إلى المحمدية (يريد بها الجامع)، وأمر أن تنكس جميع الصور الباطلة، وأصلح المكان، وجعله مستعداً لعبادة سيدتنا المقدسة مريم، ثم أقام فيه صلاة على سيدتنا.

ومنها قصة (مركبروس) وهو أول من عرف من شعراء الحرب الصليبية الأندلسية (سنة 1114 ـ 1124م)، وهي التي انتخب فيها (الفونس) السابع رئيساً، ولقب بالإمبراطور، وقد بدأ الشاعر شعره بما يأتي:

إن الله الذي يعلم كل ما هو كائن، وكل ما كان، وما يكون، قد وعدنا نعمة، بواسطة إمبراطور اسبانيا، عجباً! هل تعلمون ما ينال من الفضل، أولئك الذين يتطهرون في الحوض المقدس، وينصرون الله من تعدي الوثنيين في بلاد العرب وطغيانهم؟! إن مجدهم ليكون أبهى من الشهاب، الذي تهتدي به فلك البحار! إن أمة الكلاب، التي ظهر فيها ذلك النبي الكاذب، وأولئك الرجال الخائنون الذين هم أتباع ذلك الرئيس المبتدع، قد كثروا في ما يلي الشواطئ والثغور، حتى لم يبق أحد يعبد الله! فعلينا أن نطردهم بفضل الحوض المقدس، مسترشدين بالمسيح، لنقصي أولئك المحقرين، الذين يعتقدون بالسحر والطوالع.

ومنها حكاية (جوانفل)، وفيها صيغة اليمين الذي حلفه الأمراء المصريون، بين يدي سان لويس ملك فرنسا، لما دخل تلك البلاد، وهي: (نعاهدك على الطاعة، وإذا خنا فعلينا لعنة من يرتكب ذنباً، ويذهب إلى الحج بمكة ليزور محمداً ورأسه مكشوفة، ولعنة من يطلق امرأته ثم يراجعها)، لأن من طلق امرأته، فشريعة محمد تقضي عليه أن لا يراجعها، إلا بعد أن ينكحها غيره، وأنهم إن خانوا عهودهم مع الملك، فعليهم لعنة المسلمين الذين يأكلون لحم الخنزير، وقد قبل الملك منهم هذه الأيمان، لأن نقولا العكاوي ـ الذي كان يعرف المسلمين ـ قال: إنهم لا يستطيعون أن يغلظوا أيمانهم أكثر من ذلك.

ومما جاء فيها أيضاً قوله: إن الأمراء أرادوا أن ينكثوا عهده، إطاعة لأوامر القرآن، فقال أحدهم: إننا إذا قتلنا الملك بعد أن قتلنا السلطان، يقول الناس: إن المصريين أقبح الناس، وأشدهم خيانة وكفراناً! وقال آخر: حقاً نحن كنا من الأشرار، بتخلصنا من سلطاننا الذي قتلناه، لأننا خالفنا أوامر محمد، الذي يأمرنا بالحفاظ على سلطاننا، كما نحافظ على العيون. ولكن اسمعوا أمره الثاني المكتوب في الكتاب، ثم تصفح ورقة الكتاب، وقرأ: حافظوا على الشريعة، بقتل أعداء الشريعة، فنحن خرجنا عن أمره لما قتلنا السلطان، ثم إننا نخرج عن أمره أيضاً، إذا لم نقتل الملك، مهما كانت عهودنا معه، لأنه أكبر أعداء الشريعة الوثنية.

وحكى جوانفيل قصة دارت بين رجل من رجال الملك، وشيخ من المسلمين في سوق دمياط، تبادلا فيها الحديث عن الدين، فقال: ذهب حنا أرمين، أحد عساكر الملك إلى دمياط، ليشتري قروناً وجلوداً، كي يصنع منها نبالاً، فوجد رجلاً شيخاً كبيراً، جالساً في السوق، فناداه وسأله: إن كان نصرانياً؟ فأجابه: نعم.

فقال له الشيخ: إنكم حقاً تكرهون بعضكم أيها النصارى، وأنا شاهدت مرة ملككم المسمى (بدوان) كسر صلاح الدين، ولم يكن معه إلا ثلاثمائة مقاتل، مع أن جيش صلاح الدين كان ثلاثة آلاف، واليوم قد وصلتم بذنوبكم إلى حالة، جعلتنا نأخذكم في الحقول أخذ الماشية!
فقال له حنا: يجب عليك أن تُمسك عن ذنوب النصارى، لأن ذنوب المسلمين أعظم وأشد!
فقال له المسلم: إنك أجبت بغير تعقل، فسأله حنا: ولم ذا؟ فقال له إنه سيخبره بالسبب، ولكن يسأله قبل ذلك: إن كان له ولد؟ فأجابه: نعم، ولد ذكر.
فقال له: أي الأمرين أشد وقعاً في نفسك، لطمك باليد على وجهك مني، أو من ولدك؟
فقال له حنا: إني أغضب من ابني إذا ضربني، أكثر مما لو ضربتني أنت.
فقال له المسلم: إذا أجبت عن سؤالك الأول، وهو أنكم تعتقدون بأنكم أولاد الله المسيح، الذي سُميتم مسيحيين نسبة إليه، وأنعم عليكم كثيراً حتى جعلكم تعرفون الشر من الخير، ولذلك فإن الله يغضب منكم إذا فرط منكم ذنب صغير، أكثر منا إذا صدر عنا جرم عظيم، ونحن جهلاء جداً، إلى حد أننا نعتقد النجاة من ذنوبنا، لو اغتسلنا قبل الوفاة، لأن محمداً قال لنا بأننا نطهر من ذنوبنا بالماء عند الممات.
ومما يلذ ذكره، ما يعتقده الصليبيون في مذهب الشيعة عند المسلمين، قال اليسوعي (إيف بريطون)، وكان يعرف العربية يروي عن اعتقاد شيخ الجبل:
رأيت أن شيخ الجبل لا يعتقد بمحمد، ولكنه يعتقد بشرع علي ، وعلي ، هو الذي رفع محمداً إلى درجات الشرف التي وصل إليها، فلما انتهى إليه الأمر، وصار أميراً على الأمة، احتقره وأبعده، فلما رأى علي ذلك، جمع إليه من أحبه من الناس، وعلمهم شرعاً غير الذي أملاه محمد، ومن هنا جاء أن أتباع علي يقولون: إن أتباع محمد كافرون، ويقول أتباع محمد: إن أتباع علي كافرون.
ومن معتقدات أحزاب علي: أن الرجل الذي يموت في تنفيذ أوامر ربه، تذهب روحه، فتحمل جسداً تسعد به أكثر من سابقه، ولذلك فإن المقاتلين لا يهابون أن يقتلوا أنفسهم متى أمرهم الأمير، لاعتقادهم بأنهم سيسعدون بالموت، أكثر مما لو كانوا أحياء.
ومن معتقداتهم أيضاً: أنه لا يموت أحد قبل اليوم المحتوم لأجله، مع أنه يجب أن لا يعتقد أحد مثل ذلك، إذ في قدرة الله أن يطيل الحياة، أو يقصرها، والبدو يعتقدون ذلك، ولهذا فإنهم لا يلبسون الزرد إذا حاربوا، كيلا يخالفوا أوامر شرعهم، وإذا لعنوا أولادهم قالوا لهم: عليكم لعنة الكافرين، الذين يخافون الموت، فيلبسون الزرد والصفائح.
قال صاحب القصة: وقد رأيت كتاباً موضوعاً ناحية رأس شيخ الجبل، فيه أقوال كثيرة مما قاله الرب للقديس بطرس عند نزوله إلى الأرض، فأوصيته بتلاوة تلك الأقوال، لأنها أقوال طيبة، فأجابني: إن هذا شأنه، لأنه يحب القديس بطرس، إذ في بدء العالم، لما قتل قابيل، انتقلت روحه إلى نوح، فلما مات نوح، انتقلت منه إلى إبراهيم، وانتقلت من بعده في جسم القديس بطرس لما نزل الرب إلى الأرض.
فلما سمع منه إيف اليسوعي ذلك، قال له: إن اعتقاده لم يكن سليماً، وألقى عليه كثيراً من التعاليم الطيبة، ولكنه لم يرد أن يصدق بها.
ومنها قصة تيربان الكاذب، وهي حكاية موضوعة، لا يؤخذ منها سند في التاريخ، ولكنها احتوت على ما كانت عليه الأخلاق والأفكار في القرن التاسع، والمرجح أنها أنشئت في القرن العاشر، وكانت في زمانها منتشرة، راسخة في الأذهان، ولكنها اليوم معدودة من الأقاصيص المخترعة باتفاق.
ولاحتوائها على ما ذكرنا، رأينا أن اقتطاف طرف منها، مفيد في موضوعنا، ففيها كلام طويل عن صنم محمد، وكيف أن الملك العظيم شارلمان لم يتمكن من إبادته، كما عجز عن ذلك غيره من النصارى قال:
لما دخل شارلمان بلاد اسبانيا، أمر رجاله فكسروا جميع الأوثان والأصنام، ما خلا الصنم الموضوع في بلاد الأندلس، الذي يقال له سلام، ومعنى سلام باللغة العربية، الله، والمسلمون يقولون: إن هذا الصنم من صنع شارعهم محمد، ولذلك يعظمونه، ويعلون قدره، ومحمد هو شارع كاذب، وقد صنع ذلك الصنم من العفاريت بسحره، وجعله بسحره من القوة، بحيث لا يقدر أحد على كسره، فإذا اقترب منه أحد من النصارى، يموت في الحال، وإذا دنا منه مسلم ليعبد محمداً، ويصلي له، يعود بدون جرح يصيبه، ولا ضرر، وإذا وقف عليه طائر مات في الحال!
وتلك الصورة موضوعة على حجر قديم، غاية في الصنع والإتقان، من صناعة بني سارة، على شاطئ البحر، في أرض فسيحة مربعة، ويبلغ ارتفاعه مبلغ ما يناله الطير في ارتفاعه.
والصورة المذكورة هي من معدن غالٍ، على شكل رجل قائم على رجليه، ووجهه إلى الجنوب، وبيده اليمنى مفتاح كبير الحجم، يعتقد بنو سارة: أنه يسقط من تلك اليد، يوم يُولى في بلاد الغال (فرنسا) ملك تدين له جميع بلاد اسبانيا، ويعدل الشرائع النصرانية على حسب الزمن الجديد، ومتى رأى بنو سارة أن المفتاح قد سقط، يخفون كنوزهم في الأرض، ويهربون.
ومنها المرآة التاريخية ـ طُبعت أول مرة سنة 1482م- وهي لرجل من أصحاب دومينيك يقال له (فنسان دي بوفي)، المتوفى سنة 1264، وضعها بناء على أمر الملك (سان لويس)، وخصص أحد فصولها، وهو الرابع والعشرون، من الجزء الرابع، لتاريخ محمد، ويقول المؤرخون: إنه أخذ كثيراً عن العرب، ولكنا نراه أخذ أكثرها من قصة تربان الكاذب، وإليك المواضيع التي تكلم عنها في الفصل المذكور:
الأول: بدعة التوحيد، والبرنسيس، يعني بها السيدة خديجة، وشريعة محمد، وفي هذا الموضوع، يذكر قصة الحمامة التي تعلمت أن تقف على كتف النبي، لتلتقط الحب من أذنه، وقصة الثور الذي استأنس.
الثاني: سرقات محمد، وخداعه، وفظائعه، وفيه يذكر أن النبي كان يقتل ويخنق كل من رآه، ومن هنا جاء وهم الناس بأنه كان نبياً فتاكاً.
الثالث: قذارة شريعة محمد وخرافتها، وكيف وجد القرآن، وفيه يذكر حكاية الراهب سرجه الذي قيل: إنه علم النبي العهدين القديم والجديد.

الرابع: حمق أتباعه، وتعصبهم الأعمى، وصيام المسلمين الكاذب، وغسلهم، والحج إلى البيت بمكة، واعتقادهم بنزول الوحي فيه، والأصنام التي أبادها شارلمان، والتي أقامها.

الجزء الثاني

معجـزات القـرآن

من المذهل معجزات القرآن العلمية الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى والتي تدل على أن هذا القرآن لاشك أنه من عند الله لأنه لا يمكن لأي بشر أن يقول ما قاله الله في القرآن منذ أكثر من 1430 عاما، وبدون استخدام أي معدات أو أدوات حديثة، وكل حقيقة في القرآن يثبتها العلم الآن، فتلك المعجزات عظيمة جداً وسنتناولها في هذا التقرير لبيان قدرة الله سبحانه وتعالى.

أولاً: وحدة الكون

أظهرت النظريات العلمية الحديثة أن الأرض كانت جزءاً من المجموعة الشمسية ثم انفصلت منها وتبردت وأصبحت صالحة لسكنى الإنسان، ويبرهنون على صحة النظرية بوجود البراكين والمواد الملتهبة في باطن الأرض، وقذف الأرض بين حين وحين بهذه الحمم من المواد البركانية الملتهبة... إلخ.

هذه النظرية الحديثة تتفق مع ما أشار إليه القرآن الكريم في قوله جل ثناؤه: (أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي، أفلا يؤمنون).

يقول العلماء: هذه معجزة من معجزات القرآن يؤيدها العلم الحديث الذي قرر أن الكون كان شيئاً واحداً متصلاً من غاز ثم انقسم إلى سدائم، وعالمنا الشمسي كان نتيجة تلك الانقسامات.. أما الشطر الثاني من الآية (وجعلنا من الماء كل شيء حي) فهو من أبلغ ما جاء في تقرير حقيقةٍ علميةٍ أدرك العلماء سرها، فمعظم العمليات الكيماوية تحتاج إلى ماء، وهو العنصر الأساسي لاستمرار الحياة لجميع الكائنات والنباتات وللماء خواص أخرى تدل على أن مبدع الكون قد صممه بما يحقق صالح مخلوقاته، والماء يمتص كميات كبيرة من الأوكسجين عندما تكون درجة حرارته منخفضة، وعندما يتجمد تنطلق منه كميات كبيرة من الحرارة تساعد الأحياء التي تعيش في البحار من أسماك وغيرها، فما أعجب حكمة القرآن الذي يبين بكلمات جميلة سر الحياة؟!

والله تعالى يقول: (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه حق).

هذه من الآيات التي اطلعنا الله عليها في القرن العشرين.

ثانياً: نشأة الكون

يقول العالم الفلكي (جينز): (إن مادة الكون بدأت غازاً منتشراً خلال الفضاء بانتظام، وإن السدائم (المجموعات الفلكية) خلقت من تكاثف هذا الغاز).

ويقول الدكتور (جامو): إن الكون في بدء نشأته كان مملوءاً بغاز موزع توزيعاً ومنه حدثت عمليات التكون للأرض.

هذه النظرية نجد لها في القرآن الكريم ما يؤيدها ولولا أن القرآن أخبر عن ذلك لاستبعدنا هذه النظرية يقول تعالى (ثم استوى إلى السماء وهي دخان، فقال لها وللأرض: ائتيا طوعاً أوكرهاً، قالتا: أتينا طائعين)، فالقرآن صور مصدر خلق هذا الكون (بالدخان) وهو الشيءالذي يفهمه العرب من الأشياء الملموسة. أيكون في مقدور أمي منذ أربعة عشر قرناً أن يدرك هذا في وقت كان الناس لا يعرفون شيئاً عن هذا الكون وخفاياه؟!

ثالثاً: تقسيم الذرة

ظل الاعتقاد السائد حتى القرن التاسع عشر أن الذرة هي أصغر من جزءٍ يمكن أن يكون في عنصر من العناصر. وأنها غير قابلة للتجزئة لأنها الجزء الذي لا يتجزأ، وقد مضت قرون على هذا الاعتقاد ومنذ عشرات السنين الماضية حول العلماء اهتمامهم إلى مشكلة (الذرة) فأمكنهم تجزئتها وتقسيمها، وقد وجدوا أنها تحتوي على الدقائق الآتية: (1) البروتون (2) النيوترون (3) الإلكترون، وبواسطة هذه التجزئة اخترعوا القنبلة الذرية، والقنبلة الهيدروجينية، ونعوذ بالله من قيام الساعة ومن شر إبليس اللعين. استمع إلى قوله تعالى عند الإخبار عن الذرة

بسم الله الرحمن الرحيم

{لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتابٍ مبين}.

فكلمة (أصغر) الذرة في الآية القرآنية تصريح جلي بإمكان تجزئتها، وفي قوله (في السماوات) بيان بأن خواص الذرات في الأرض هي نفس خواص الذرات الموجودة في الشمس والنجوم والكواكب.

فهل درس محمد [خواص الذرة وأمكنه تجزئتها والوقوف على خواصها في السماوات والأرض؟ إنها لدليل قوي على أن القرآن وحي إلهي.

رابعاً: نقص الأوكسجين

منذ اكتشاف الطيران ظهرت للعلماء بادرة طبيعية وهي (نقص الأوكسجين في طبقات الجو العليا، فكلما حلق الإنسان وارتفع في أجواء السماء أدركته هذه الظاهرة، وشعر عند ذلك بضيق الصدر وصعوبة التنفس، حتى ليكاد يشعر بالاختناق، ولهذا فإن الطيارين يعطون تعليمات للركاب بأن يستعملوا (الأوكسجين الصناعي) حين تعلو بهم الطائرة إلى مرتفعات عالية تزيد عن خمسة وثلاثين ألف قدم.

هذه الظاهرة العلمية أشار إليها القرآن الكريم قبل اختراع الطيران وقبل أربعة عشر قرناً.

استمع إلى قوله تعالى: (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء).

وقد جاء العلم في هذا العصر فأظهر معجزة القرآن، وسجل اتفاقاً رائعاً للآية القرآنية مع الواقع العلمي فكان تأييداً لصدق نبوة محمد [، فلله ما أروع هذا القرآن وما أسماه!؟.

خامساً: الزوجية منبثة في كل شيء

كان الناس يعتقدون بأن الزوجية (الذكر والأنثى) منبثة بين النوعين (الإنسان والحيوان) فقط، فجاء العلم الحديث فأثبت أن الزوجية توجد في النبات وفي الجماد، وفي كل ذرة من ذرات الكون والوجود. حتى الكهرباء فيها (الموجب) وفيها (السالب) هذه فيها شحنة كهربائية موجبة، وتلك فيها شحنة كهربائية سالبة، وحتى الذرة فيها (البروتون) و(النيوترون) وكل منهما يشبه الذكر والأنثى وهذا الاكتشاف سبق إليه القرآن العظيم في عديد من الآيات الكريمة استمع إلى هذه الروائع البينات.

{ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون) فالعموم هنا واضح (ومن كل شيء}.

{أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوجٍ كريم} الإشارة هنا للنبات.

{سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم وما لا يعلمون}.

فهذه الآيات الكريمة عممت الزوجية في النبات والإنسان وفي كل شيء مما نعلمه أو لا نعلمه فسبحان الإله القدير العليم، الذي أحاط علمه بكل الأكوان وأحصى كل شيٍ عدداً!

سادساً: أغشية الجنين

ثبت علمياً أن الجنين في بطن أمه محاط بثلاثة أغشية، وهذه الأغشية لا تظهر إلا بالتشريح الدقيق، وتظهر بالعين المجردة كأنها غشاء واحد، وهذه الأغشية هي التي تسمى (الغشاء المنباري) و(الخوربون) و(اللفائفي) هذا ما أثبته الطب الحديث، وقد جاء القرآن الكريم مؤيداً هذه الحقيقة العلمية، وذلك في سورة الزمر في قوله جل وعلا: (يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك).

ففي هذه الآية معجزة علمية للقرآن، فقد أخبر أن الجنين له ثلاثة أغشية أسماها (ظلمات) لأن الغشاء حاجز وحجاب يحجز عنه النور والضياء، وهي في العلم الحديث ثلاثة أغشية.

سابعاً: التلقيح بواسطة الرياح

أثبت العلم الحديث أن الهواء ينقل الأعضاء المذكرة إلى المؤنثة في النخيل وغيرها من الأشجار المثمرة فيكون التلقيح بواسطة الرياح والهواء، وهذه الناحية العلمية تحدث عنها القرآن الكريم في قوله جل ثناؤه:

(وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماءً فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين) وهذا سبق للقرآن في الحقائق العلمية الثابتة مما يدل على صدق النبوة.

ثامناً: الحيوان المنوي

اكتشف الطب الحديث أن هذا السائل من مني الإنسان يحوي حيوانات صغيرة تسمى (الحيوانات المنوية) وهي لاترى بالعين المجردة، وإنما ترى (بالمكرسكوب) وكل حيوان منها له رأس ورقبة وذيل يشبه دودة العلق في شكلها ورسمها، وأن هذا الحيوان يختلط بالبويضة الأنثوية فيلقحها، فإذا ما تم اللقاح انطبق عنق الرحم فلم يدخل شيء من بعده إلى الرحم، وأما بقية الحيوانات فتموت، وهذه الناحية العلمية وهي أن الحيوان المنوي يشبه العلق في الشكل والرسم فقد أثبتها القرآن. استمع إلى قوله جل وعلا: (اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق).

فهذه الآية معجزة بليغة من معجزات القرآن لم يظهر وقت نزولها ولا بعده بمئات السنين إلى أن اكتشف المجهر المكبر (المكرسكوب) وعرف كيف يتكون الإنسان بقدرة الله.

تاسعاً: اختلاف بصمات الإنسان

في القرن الماضي سنة1884 م استعملت في انجلترا رسمياً طريقة للتعرف على الشخص بواسطة بصمات الأصابع، وأصبحت هذه الطريقة في جميع البلاد، ذلك لأن بشرة الأصابع مغطاة بخطوط دقيقة وعلى عدة أنواع (أقواس، عراوٍ، دوامات)، وهذه الخطوط لاتتغير مدى الحياة وجميع أعضاء الجسم تتشابه أحياناً ولكن الأصابع لها مميزات خاصة إذ انها لا تتشابه ولا تتقارب وهنا المعجزة الإلهية. فلماذا اختار الله سبحانه بنان الإنسان في إقامة الدليل على البعث (أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه بلى قادرين على أن نسوي بنانه).

عاشراً: تجربة جديدة لكشف الكذب

في عام 2003 قام العلماء بتجربة رائعة لكشف أسرار الكذب. لقد كان هدف التجربة محاولة ابتكار جهاز لكشف الكذب، وهل من الممكن أن نستخدم هذا الجهاز في التحقيق مع المجرمين؟ وقد كان سر الإجابة في معرفة المنطقة المسؤولة عن الكذب أولاً.

وبعد إجراء التجارب والتقاط العديد من الصور لجميع أجزاء الدماغ وجد العلماء أن الإنسان عندما يكذب فإن هنالك نشاطاً كبيراً تظهره الصور المغناطيسية بطريقة تسمى imaging resonance magnetic functional في منطقة محددة من الدماغ وهي منطقة أعلى ومقدمة هذا الدماغ.

وهكذا استنتج العلماء أن الجزء الأمامي العلوي من الدماغ هو المسؤول عن الكذب! وهذا الجزء هو ما نسميه في اللغة العربية بناصية الإنسان، أي أعلى ومقدمة الرأس.

القرآن أول كتاب يحدد مهام الجزء الأمامي من الدماغ

إنها اكتشافات حديثة جداً لا يزال العلماء حتى هذه الحظة يبحثون ويجرون التجارب لكشف الكثير من أسرار هذه المنطقة الحساسة من الدماغ، والتي تقع في مقدمة الرأس، أو الناصية. ولكن من المذهل أن القرآن أثبت هذه الحقيقة العلمية في زمن لم يكن أحد على وجه الأرض يعلم أي شيء عن هذا الجزء من الدماغ أو عن عمله ومهامه التي تتعلق بالخطأ والكذب.

الكذب

يقول تعالى عن أبي جهل لعنه الله: {أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعَنْ بِالنَّاصِيَةِ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ} (العلق: 14 - 15). وبما أن المنطقة الأمامية من الدماغ أي منطقة الناصية هي التي تمارس نشاط الكذب، فإن القرآن بذلك يكون أول كتاب تحدث عن هذه المنطقة من الدماغ وعلاقتها بالكذب بل وصفها بالكذب (ناصية كاذبة). وهذا سبق علمي للقرآن.

الخطأ

والآن ماذا عن الخطأ؟ لقد وجد العلماء كما رأينا أن منطقة الناصية في الدماغ أو الفص الجبهي هو المسؤول عن اتخاذ القرارات الخاطئة!! ولذلك فإن الوصف القرآني دقيق جداً من الناحية العلمية عندما وصف الناصية بالخاطئة: (نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ). وهنا أيضاً نلاحظ أن القرآن قد ربط بين الناصية وبين الخطأ، وهذا ما كشفه العلماء حديثاً جداً.

والآن لنسأل أنفسنا سؤالا من الذي لديه القدرة أن يكتشف هذه الحقيقة عن خلق الإنسان وعن عقله غير اله خالق هو الذي خلق الإنسان ويعلم كل صغير وكبير عنه، وارسل لنا بالقرآن فيه هذه الحقائق التي يكتشفها العلم الآن ليؤكد لنا وجوده، انه الله الرحيم الذي أرسل الينا بمعجزات في القرآن آلاف المعجزات التي أوحى الله بها إلى نبيه من أكثر من 1430 عاما بدون وجود أجهزة أو معدات حديثة أو علم تشريح أو معامل تحليل. إنه الله الذي أشهده أني أحبه وأحب كرمه بنا إذ أخرجنا من الظلمات إلى النور.

وهناك مثل هذه المعجزات آلاف في القرآن والسنة هذه فقط أمثلة بسيطة

وأختم بقول الله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

(من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً).

فالله قد بعث لنا الرسل وينير لنا الطريق للوصول إلى الهدى والحق فإن اهتدينا فهو خير لأنفسنا، وإن لم نهتد فلن نضر الله شيئاً، فالله هو الغنى عنا، ودائماً ما يناديا الله بقوله:

]

{أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}.

في الثلث الأول من القرن العشرين لاحظ الفلكيون عملية توسع الكون التي دار من حولها جدل طويل حتى سلّم العلماء بحقيقتها، وقد سبق القرآن الكريم بالإشارة إلى تلك الحقيقة قبل ألف وأربعمائة سنة، يقول الحق تبارك وتعالى: {وَالسَّمَآءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ} (الذاريات: 47). وكانت هذه الآية الكريمة قد نزلت والعالم كله ينادي بثبات الكون، وعدم تغيره، وظل هذا الاعتقاد سائدًا حتى منتصف القرن العشرين حين أثبتت الأرصاد الفلكية حقيقة توسع الكون، وتباعد مجراته عنًّا، وعن بعضها بعضًا بمعدلات تقترب أحيانًا من سرعة الضوء (المقدرة بنحو ثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية)، وقد أبدت كل من المعادلات الرياضية وقوانين الفيزياء النظرية استنتاجات الفلكيين في ذلك، وانطلاقًا من هذه الملاحظة الصحيحة نادى كل من علماء الفلك، والفيزياء الفلكية والنظرية بأننا إذا عدنا بهذا الاتساع الكوني إلى الوراء مع الزمن فلابد أن تلتقي كل صور المادة والطاقة الموجودة في الكون (المدرك منها وغير المدرك) وتتكدس على بعضها في جرم ابتدائي يتناهى في الصغر إلى ما يقرب الصفر أو العدم، وتنكمش في هذه النقطة أبعاد كل من المكان والزمان حتى تتلاشى (مرحلة الرتق). وهذا الجرم الابتدائي كان في حالة من الكثافة والحرارة تتوقف عندهما كل القوانين الفيزيائية المعروفة، ومن ثم فإن العقل البشري لا يكاد يتصورهما، فانفجر هذا الجرم الأولي بأمر الله تعالى في ظاهرة يسميها العلماء عملية الانفجار الكوني العظيم.

ويسميها القرآن الكريم باسم الفتق، فقد سبق القرآن الكريم كل المعارف الإنسانية بالإشارة إلى ذلك الحدث الكوني العظيم من قبل ألف وأربعمائة من السنين بقول الحق ـ تبارك وتعالى:

{أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوآ أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ} (الأنبياء: (30، وتشير دراسات الفيزياء النظرية في أواخر القرن العشرين إلى أن جرمًا بمواصفات الجرم الابتدائي للكون عندما ينفجر يتحول إلى غلالة من الدخان الذي تخلّقت منه الأرض وكل أجرام السماء، وقد سبق القرآن الكريم بألف وأربعمائة سنة كل المعارف الإنسانية وذلك بإشارته إلى مرحلة الدخان في قول الحق ـ تبارك وتعالى:

{قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالذي خَلَقَ الأَرْضَ في يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَـالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهـا وَقَـدَّرَ فِيهـآ أَقْـوَاتَهـا في أَرْبَعَـةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ثُمَّ اسْتَوَى إِلى السَّمَآءِ وَهِىَ دُخَـانٌ فَقَـالَ لَهـا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَـوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ في يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى في كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّـــمَآءَ الـدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} فصلت: 9 - 12.

وفي 8 نوفمبر سنة 1989م أطلقت وكالة الفضاء الأميركية مركبة فضائية باسم مكتشف الخلفية الإشعاعية للكون وذلك في مدار على ارتفاع ستمائة كيلومتر حول الأرض بعيدًا عن تأثير كل من السحب والملوثات في النطق الدنيا من الغلاف الغازي للأرض، وقد قام هذا القمر الصناعي بإرسال ملايين الصور والمعلومات إلى الأرض عن آثار الدخان الأول الذي نتج عن عملية الانفجار العظيم للكون من على بعد عشرة مليارات من السنين الضوئية، وهي حالة دخانية معتمة سادت الكون قبل خلق الأرض والسماوات، فسبحان الذي أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة قولَه الحق:

{ثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وِلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ} (فصلت: 11).

بعد التسليم بحقيقة توسع الكون، ورد ذلك التوسع إلى الوراء مع الزمن حتى الوصول إلى جرم ابتدائي واحد مُتَنَاهٍ في الضآلة حجمًا إلى الصفر أو ما يقرب من العدم، ومتناهٍ في الكثافة والحرارة إلى حد لا يكاد العقل الإنساني أن يتخيله، لتوقف كل قوانين الفيزياء المعروفة عنده (مرحلة الرتق)، وبعد التسليم بانفجار هذا الجرم الابتدائي (مرحلة الفتق) في ظاهرة كونية يسميها العلماء الانفجار الكوني الكبير ـ بدأ كل من علماء الفلك والفيزياء الفلكية والنظرية في تحليل مسار الأحداث الكونية بعد هذا الحدث الكوني الرهيب، ومع إيماننا بأن تلك الأحداث الموغلة في تاريخ الكون تقع في صميم الغيب الذي أخبرنا به ـ تبارك وتعالى ـ عند قوله ـ عز من قائل:

{مَآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا} الكهف: 51.

إلا أن السنن التي فطر الله ـ تعالى ـ الكون عليها لها من الاطّراد، والاستمرار، والثبات، ما يمكن أن يعين الإنسان على الوصول إلى شيء من التصور الصحيح لتلك الأحداث الغيبية الموغلة في أبعاد التاريخ الكوني على الرغم من حس الإنسان المحدود، وقدرات عقله المحدودة، ومحدودية كل من زمانه ومكانه.

كذلك فإن التقنيات المتطورة من مثل الصواريخ العابرة لمسافات كبيرة في السماء، والأقمار الصناعية التي تطلقها تلك الصواريخ، والأجهزة القياسية والتسجيلية الدقيقة التي تحملها قد ساعدت على الوصول إلى تصوير الدخان الكوني الأول الذي نتج عن عملية الانفجار العظيم، والذي وجدت بقايا أثرية له على أطراف الجزء المدرك من الكون، وعلى أبعاد تصل إلى عشرة مليارات من السنين الضوئية لتثبت دقة التعبير القرآني بلفظة دخان التي وصف بها حالة الكون قبل خلق السماوات والأرض.

الفيزياء الفلكية ودخانية الكون

بعد الانفجار العظيم تحول الكون إلى غلالة من الدخان الذي خلقت منه الأرض والسماوات وتشير الحسابات الفيزيائية إلى أن حجم الكون قبل الانفجار العظيم كاد يقترب من الصفر، وكان في حالة غريبة من تكدس كل من المادة والطاقة، وتلاشي كل من المكان والزمان، تتوقف عندها كل قوانين الفيزياء المعروفة (مرحلة الرتق) ثم انفجر هذا الجرم الابتدائي الأولي في ظاهرة كبرى تعرف بظاهرة الانفجار الكوني العظيم (مرحلة الفتق) وانفجاره تحول إلى كرة من الإشعاع والجسيمات الأولية أخذت في التمدد والتبرّد بسرعات فائقة حتى تحولت إلى غلالة من الدخان. فبعد ثانية واحدة من واقعة الانفجار العظيم تقدر الحسابات الفيزيائية انخفاض درجة حرارة الكون من تريليونات الدرجات المطلقة إلى عشرة بلايين من الدرجات المطلقة (ستيفن و. هوكنج 1988م).

وعندها تحول الكون إلى غلالة من الدخان المكون من الفوتونات والإلكترونات والنيوترينوات وأضداد هذه الجسيمات مع قليل من البروتونات والنيوترونات، ولولا استمرار الكون في التوسع والتبرد بمعدلات منضبطة بدقة فائقة لأفنت الجسيمات الأولية للمادة وأضدادها بعضها بعضًا وانتهى الكون، ولكنه حفظ بحفظ الله الذي أتقن كل شيء خلقه.

والنيوترونات يمكن أن توجد في الكون على هيئة ما يسمى باسم المادة الداكنة وينادي (آلان جوث) بأن التمدد عند بدء الانفجار العظيم كان بمعدلات فائقة التصور أدت إلى زيادة قطر الكون بمعدل 2910 مرة في جزء من الثانية.

وتشير حسابات الفيزياء النظرية إلى الاستمرار في انخفاض درجة حرارة الكون إلى بليون (ألف مليون) درجة مطلقة بعد ذلك بقليل، وعند تلك الدرجة اتحدت البروتونات والنيوترونات لتكون نوى ذرات الإيدروجين الثقيل أو الديوتريوم التي تحللت إلى الإيدروجين أو اتحدت مع مزيد من البروتونات والنيوترونات لتكون نوى ذرات والقليل من نوى ذرات عناصر أعلى مثل نوى ذرات الليثيوم ونوى (HeliumNuclei) الهيليوم ذرات البريليوم، ولكن بقيت النسبة الغالبة لنوى ذرات غازي الأيدروجين والهيليوم، وتشير الحسابات النظرية إلى أنه بعد ذلك بقليل توقف إنتاج كل من الهيليوم والعناصر التالية له، واستمر الكون في الاتساع والتمدد والتبرد لفترة زمنية طويلة، ومع التبرد انخفضت درجة حرارة الكون إلى آلاف قليلة من الدرجات المطلقة حين بدأت ذرات العناصر في التكون والتجمع وبدأ الدخان الكوني في التكدس على هيئة أعداد من السُّدُم الكونية الهائلة.

ومع استمرار عملية الاتساع والتبرد في الكون بدأت أجزاء من تلك السدم في التكثف على ذاتها بفعل الجاذبية وبالدوران حول نفسها بسرعات متزايدة بالتدريج حتى تخلقت بداخلها كتل من الغازات المتكثفة، ومع استمرار دوران تلك الكتل الكثيفة في داخل السدم بدأت كميات من غازي الإيدروجين والهيليوم الموجودة بداخلها في التكدس على ذاتها بمعدلات أكبر، مما أدى إلى مزيد من الارتفاع في درجات حرارتها حتى وصلت إلى الدرجات اللازمة لبدء عملية الاندماج النووي فتكونت النجوم المنتجة للضوء والحرارة.

وفي النجوم الكبيرة الكتلة استمرت عملية الاندماج النووي لتخليق العناصر الأعلى في وزنها الذري بالتدريج مثل الكربون والأوكسيجين وما يليهما حتى يتحول لب النجم بالكامل إلى الحديد فينفجر هذا على هيئة فوق المستعر وتتناثر أشلاء فوق المستعرات وما بها من عناصر ثقيلة في (Nova) النجم المستعر داخل المجرة لتتكون منها الكواكب والكويكبات، بينما يبقى منها في غازات المجرة ما يمكن أن يدخل في بناء نجم آخر ـ بإذن الله ـ وتحتوي شمسنا على نحو 2% من كتلتها من العناصر الأثقل في أوزانها الذرية من غازي الإيدروجين والهيليوم، وهما

المكونان الأساسيان لها، وهذه العناصر الثقيلة لم تتكون كلها بالقطع. في داخل الشمس بل جاءت إليها من بقايا انفجار بعض من فوق المستعرات.

وعلى الرغم من تكدس كل من المادة والطاقة في أجرام السماء (مثل النجوم وتوابعها) فإن الكون المدرك يبدو لنا متجانسًا على نطاق واسع، في كل الاتجاهات، وتحده خلفية إشعاعية متساوية حيثما نظر الراصد. كذلك فإن توسع الكون لم يتجاوز بعد الحد الحرج الذي يمكن أن يؤدي إلى انهياره على ذاته، وتكدسه من جديد، مما يؤكد أنه محكوم بضوابط بالغة الدقة والأحكام، ولا يزال الكون المدرك مستمرًا في توسعه بعد أكثر من عشرة مليارات من السنين (هي العمر الأدنى المقدر للكون) وذلك بنفس معدل التوسع الحرج، ولو تجاوزه بجزء من مئات البلايين من المعدل الحالي للتوسع لانهار الكون على الفور.

فسبحان الذي حفظه من الانهيار. والنظرية النسبية لا يمكنها تفسير ذلك لأن كل القوانين الفيزيائية، وكل الأبعاد المكانية والزمانية تنهار عند الجرم الابتدائي للكون قبل انفجاره (مرحلة الرتق) بكتلته، وكثافته وحرارته الفائقة، وانعدام حجمه إلى ما يقرب من الصفر.

ولا يمكن أن يتصور أحد مصدرًا لخلق هذا الكون بهذا القدر من الإحكام غير كونه أمرًا من الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ الذي {إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ} (يس: 82).

فعلى سبيل المثال لا الحصر يذكر علماء الفيزياء أنه إذا تغيرت الشحنة الكهربائية للإلكترون قليلاً، ما استطاعت النجوم القيام بعملية الاندماج النووي، ولعجزت عن الانفجار على هيئة ما يسمى بفوق المستعر إذا تمكنت فرضًا من القيام بعملية الاندماج النووي. والمعدل المتوسط لعملية اتساع الكون لابد وأنه قد اختير بحكمة بالغة لأن معدله الحالي لا يزال قريبًا من الحد الحرج اللازم لمنع الكون من الانهيار على ذاته.

ويقرر علماء الفيزياء النظرية والفلكية أن الدخان الكوني كان خليطًا من الغازات الحارة المعتمة التي تتخللها بعض الجسيمات الأولية للمادة وأضداد المادة حتى تشهد هذه الصورة من صور الزوجية السائدة في الكون لله وحده بالتفرد بالوحدانية فوق كافة خلقه، ولا توجد كلمة تُوفي هذه الحالة حقَّها من الوصف مثل كلمة دخان، فسبحان الذي أنزلها في كتابه من قبل ألف وأربعمائة من السنين.

وقد تكونت من تلك الجسيمات الأولية للمادة في الدخان الكوني الأولي نوى ذرات غازي الإيدروجين والهيليوم، وبعد ذلك وصلت إلى الحد الذي يسمح بتكوين ذرات ثابتة لعناصر أكبر وزنًا وذلك باتحاد نوى ذرات الإيدروجين والهيليوم. وظل هذا الدخان المعتم محتويًا على ذرات العناصر التي خلق منها بعد ذلك كُلاً من الأرض والسماء.

وتفيد الدراسات النظرية أن الكون في حالته الدخانية كان يتميز بقدر من التجانس مع تفاوت بسيط في كل من الكثافة ودرجات الحرارة بين منطقة وأخرى، وذلك نظرًا لبدء تحول أجزاء من ذلك الدخان بتقدير من الله تعالى إلى مناطق تتركز فيها كميات كبيرة من كل من المادة والطاقة على هيئة السدم.

ولما كانت الجاذبية في تلك المناطق تتناسب تناسبا طرديا مع كَمّ المادة والطاقة المتمركزة فيها، فقد أدى ذلك إلى مزيد من تكدس المادة والطاقة والذي بواسطته بدا تخلُّق النجوم وبقية أجرام السماء في داخل تلك السدم، وتكونت النجوم في مراحلها الأولى من العناصر الحقيقية مثل الإيدروجين والهيليوم، والتي أخذت في التحول إلى العناصر الأعلى وزنًا بالتدرج مع بدء عملية الاندماج النووي في داخل تلك النجوم حسب كتلة كل منها.

قياس درجة حرارة الخلفية الإشعاعية للكون

في الثامن من نوفمبر سنة 1989م أطلقت وكالة الفضاء الأميركية مركبة باسم مكتشف الخلفية الإشعاعية للكون ارتفعت إلى مدار حول الأرض يبلغ ارتفاعه ستمائة كيلومتر فوق مستوى سطح البحر، وذلك لقياس درجة حرارة الخلفية الإشعاعية للكون، وقياس كل من الكثافة المادية والضوئية والموجات الدقيقة في الكون المدرك، بعيدًا عن تأثير كل من السحب والملوثات في النطق الدنيا من الغلاف الغازي للأرض، وقام هذا القمر الصناعي المستكشف بإرسال قدر هائل من المعلومات وملايين الصور لآثار الدخان الكوني الأول الذي نتج عن عملية الانفجار العظيم للكون، من على بعد عشرة مليارات من السنين الضوئية، وأثبتت تلك الصور أن هذا الدخان الكوني في حالة معتمة تمامًا تمثل حالة الإظلام التي سادت الكون في مراحله الأولى. ويقدر العلماء كتلة هذا الدخان المعتم بحوالي 90% من كتلة المادة في الكون المنظور، وكتب جورج سموت ـ أحد المسؤولين عن رحلة المستكشف ـ تقريرًا نشره سنة 1992م بالنتائج المستقاة من هذا العدد الهائل من الصور الكونية، كان من أهمها الحالة الدخانية المتجانسة التي سادت الوجود عقب الانفجار الكوني العظيم، وكذلك درجة الحرارة المتبقية على هيئة خلفية إشعاعية أكدت حدوث ذلك الانفجار الكبير، وكان في تلك الكشوف أبلغ الرد على النظريات الخاطئة التي حاولت ـ من منطلقات الكفر والإلحاد ـ تجاوز الخلق، والجحود بالخالق ـ سبحانه وتعالى ـ فنادت كذبًا بديمومة الكون بلا بداية ولا نهاية من مثل نظرية الكون المستمر التي سبق أن أعلنها ودافع عنها كل من هيرمان بوندي وفريد هويل في سنة 1949م، ونظرية الكون المتذبذب التي نادى بها ريتشارد تولمان من قبل، فقد كان في إثبات وجود الدخان الكوني والخلفية الإشعاعية للكون بعد إثبات توسع الكون ما يجزم بأن كوننا مخلوق له بداية، ولابد أن ستكون له في يوم من الأيام نهاية، وقد أكدت الصور التي بثتها مركبة المستكشف للخلفية الإشعاعية والتي نشرت في ابريل 1992م كل تلك الحقائق.

وقد كان الجرم الابتدائي للكون مفعمًا بالمادة والطاقة المكدسة تكديسًا رهيبًا يكاد ينعدم فيه الحجم إلى الصفر، وتتلاشى فيه كل أبعاد المكان والزمان، وتتوقف كل قوانين الفيزياء المعروفة لنا كما سبق وأن أشرنا (مرحلة الرتق)، وبعد انفجار هذا الجرم الأولي وبدء الكون في التوسع، تمدد الإشعاع وظل الكون مليئًا دومًا بالطاقة الكهرومغناطيسية، على أنه كلما تمدد الكون قل تركيز الطاقة فيه، ونقصت كثافته،

وانخفضت درجة حرارته. وأول صورة من صور الطاقة في الكون هي قوة الجاذبية وهي قوى كونية بمعنى أن كل جسم في الكون يخضع لقوى الجاذبية حسب كتلته أو كمية الطاقة فيه، وهي قوى جاذبة تعمل عبر مسافات طويلة، وتحفظ للجزء المدرك من الكون بناءه وأبعاده ولعلها هي المقصودة بقول الحق ـ تبارك وتعالى:

{اللَّهُ الذي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا..} الرعد: 2.

وقوله ـ عز من قائل: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا في الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِى في الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ} الحج: 65.

وقوله ـ سبحانه وتعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَآءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تُخْرَجُونَ} الروم: 25.

وقوله ـ تبارك اسمه: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا...} لقمان: 10.

وقوله ـ تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} فاطر: 41. ويقسم ربنا ـ تبارك وتعالى ـ وهو الغني عن القسم في مطلع سورة الطور بـ (السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ) وهذا القسم القرآني جاء بالسماء المرفوعة بغير عمد مرئية.

القوى الكهربائية في الكون

والصورة الثانية من صور الطاقة المنتشرة في الكون هي القوى الكهربائية/المغناطيسية أو الكهرومغناطيسية وهي قوى تعمل بين الجسيمات المشحونة بالكهرباء، وهي أقوى من الجاذبية بملايين المرات بحوالي (4110 مرات)، وتتمثل في قوى التجاذب بين الجسيمات التي تحمل شحنات كهربية مختلفة (موجبة وسالبة)، كما تتمثل في قوى التنافر بين الجسيمات الحاملة لشحنات كهربية متشابهة، وتكاد هذه القوى من التجاذب والتنافر يلغي بعضها بعضًا، وعلى ذلك فإن حاصل القوى الكهرومغناطيسية في الكون يكاد يكون صِفرًا، ولكن على مستوى الجزيئات والذرات المكونة للمادة تبقى هي القوى السائدة.

والقوى الكهرومغناطيسية هي التي تضطر الإليكترونات في ذرات العناصر إلى الدوران حول النواة بنفس الصورة التي تجبر فيها قوى الجاذبية الأرض (وغيرها من كواكب المجموعة الشمسية) إلى الدوران حول الشمس، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على وحدة البناء في الكون من أدق دقائقه إلى أكبر وحداته، وهو ما يشهد للخالق ـ سبحانه وتعالى ـ بالوحدانية المطلقة بغير شريك ولا شبيه ولا منازع.

ويصور الفيزيائيون القوى الكهرومغناطيسية على أنها تنتج من تبادل أعداد كبيرة من جسيمات تكاد تكون معدومة الوزن تسمى بالفوتونات والقوى الثالثة في الكون هي القوى النووية القوية وهي القوى التي تمسك باللبنات الأولية للمادة في داخل كل من البروتونات والنيوترونات في نواة الذرة، وهذه القوى تصل إلى أقصى قدرتها في المستويات العادية من الطاقة، ولكنها تضعف مع ارتفاع مستويات الطاقة باستمرار.

والقوة الرابعة في الكون هي القوى النووية الضعيفة، وهي القوى المسؤولة عن عملية النشاط الإشعاعي وفي الوقت الذي تضعف فيه القوى النووية القوية في المستويات العليا للطاقة، فإن كُلاً من القوى النووية الضعيفة والقوى الكهرومغناطيسية تقوى في تلك المستويات العليا للطاقة. ويوحد علماء الفيزياء النظرية بين كل من القوى الكهرومغناطيسية، والقوى النووية القوية والضعيفة في ما يسمى بنظرية التوحد الكبرى والتي تعتبر تمهيدًا لنظرية أكبر توحد بين كافة القوى الكونية في قوة عظمى، واحدة تشهد لله الخالق بالوحدانية المطلقة، وعن هذه القوة العظمى انبثقت القوى الأربع المعروفة في الكون: قوة الجاذبية، القوة الكهرومغناطيسية وكل من القوتين النوويتين الشديدة والضعيفة مع عملية الانفجار الكوني الكبير مباشرة (الفتق بعد الرتق). وباستثناء الجاذبية فإن القوى الكونية الأخرى تصل إلى نفس المعدل عند مستويات عالية جدًا من الطاقة تسمى باسم الطاقة العظمى للتوحد.

ومن هنا فإن هذه الصور الثلاث للطاقة تُعَدّ ثلاثة أوجه لقوة واحدة، لا يستبعد انضمام الجاذبية إليها، باعتبارها قوة ذات مدى طويل جدًا، تتحكم في أجرام الكون وفي التجمعات الكبيرة للمادة ومن ثم يمكن نظريًا غض الطرف عنها من قبيل التبسيط عندما يقصر التعامل على الجسيمات الأولية للمادة، أو حتى مع ذرات العناصر.

وهذه الصورة من وحدة البناء في الكون، ووحدة صور الطاقة فيه، مع شيوع الزوجية في الخلق ـ كل الخلق ـ هي شهادة الكون لخالقه ـ سبحانه وتعالى ـ بالتفرد بالوحدانية المطلقة فوق كافة خلقه بغير شبيه ولا شريك ولا منازع، وصدق الله العظيم إذ يقول: {وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} الذاريات: 49. ويقول: {لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ} الأنبياء: 22. وسبحانه وتعالى إذ أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة قوله الحق: {ثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} فصلت.

الأدلة العقلية في العقيدة الإسلامية

لقد جاءت الأدلة العقلية في كتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم على إثبات وجود الله وربوبيته، وهي كثيرة ومتنوعة وسهلة وواضحة، لأن الناس أحوج ما يكونون إلى معرفة ربهم وخالقهم، وحاجتهم إلى معرفته أشد من حاجتهم للماء والهواء والطعام والشراب. _

ويمكننا أن نقول ابتداء: إن كل شيء يدل على وجود الله سبحانه وتعالى، إذ مامن شيء إلا وهو أثر من آثار قدرته سبحانه، وما ثم إلا خالق ومخلوق، وقد نبه القرآن الكريم إلى دلالة كل شيء على الله تعالى، كما في قوله عز وجل: {قل أغير الله أبغي رباً وهو رب كل شيء} (الأنعام: 164).
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد. _
وقد سئل أحد الأعراب سؤالاً موجهاً إلى فطرته السليمة، فقيل له: كيف عرفت ربك؟ فقال: البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، وجبال وأنهار، أفلا يدل ذلك على السميع البصير؟ _
وقد ذكر لنا القرآن استدلالات لأنبياء الله ورسله حين كانوا يناظرون ويجادلون بعض الملاحدة الذين ينكرون وجود الله، وإن كانوا في قرارة أنفسهم ليسوا كذلك، وإنما كانوا يقولون هذا تكبراً وعناداً واستعلاءً في الأرض. وإليك هذان المثالان من كتاب الله جل وعلا: _
المثال الأول: إبراهيم عليه السلام مع الطاغية النمرود بن كنعان. _
قال عز وجل: {ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين} (البقرة: 258). _
فقوله (ربي الذي يحي ويميت) أي: أن الدليل على وجوده سبحانه حدوث هذه الأشياء ووجودها بعد عدمها. _
المثال الثاني: موسى عليه السلام مع الطاغية فرعون مصر، وما كان بينهما من المقاولة والجدل، وماستدل به موسى على إثبات وجود الله تعالى. وقد جاء ذلك في مواضع من القرآن. _
قال تعالى: {قال فمن ربكما يا موسى قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى} _(طه: 49 - 50). _
أي أنه قد ثبت وجود وخلق وهداية للخلائق، ولابد لها من موجد وخالق وهاد، وذلك الخالق والموجد والهادي هو الرب سبحانه، ولا رب غيره. _
وفي موضع آخر قال سبحانه: (قال فرعون وما رب العالمين. قال رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين. قال لمن حوله ألا تستمعون. قال ربكم ورب آبائكم الأولين. قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون. قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون) (الشعراء: 23 - 28). _
والمقصود أن منهج الأنبياء في الاستدلال على ربوبية الله ووجوده هو استشهاد هذا الكون بأجمعه، واستنطاق الفطرة بما تعرفه وتقر به من حاجة الخلق إلى خالق، وافتقار البرية إلى بارئ. وما أجمل ما قاله الإمام الخطابي حول هذه القضية، يقول رحمه الله: _
(إنك إذا تأملت هيئة هذا العالم ببصرك، واعتبرتها بفكرك، وجدته كالبيت المبني المعد فيه ما يحتاج إليه ساكنه، من آلة وعتاد، فالسماء مرفوعة كالسقف، والأرض ممدوة كالبساط، والنجوم مجموعة والجواهر مخزونة كالذخائر، وأنواع النبات مهيأة للمطاعم والملابس والمشارب، وأنواع الحيوان مسخرة للراكب مستعملة في المرافق، والإنسان كالملك للبيت المخول فيه، وفي هذا كله دلالة واضحة على أن العالم مخلوق بتدبير وتقدير ونظام، وأن له صانعاً حكيماً تام القدرة بالغ الحكمة). _

مظاهر دلالة المخلوقات على الخالق _
أ-دلالة الخلق والإيجاد والاختراع بعد العدم. _
إن وجود الموجودات بعد العدم، وحدوثها بعد أن لم تكن، يدل بداهة على وجود من أوجدها وأحدثها. _
وليس شرطاً أن يقف كل أحد على حدوث كل شيء حتى يصدق بذلك، بل إن ذلك غير ممكن كما قال عز وجل: {ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضداً} (الكهف: 51). _
ومما يدل على أن وجود الخلق دليل على وجود الله سبحانه عز وجل: {أم خُلقوا من غير شيء أم هم الخالقون أم خَلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون} (الطور: 34 - 36). _
(هذا تقسيم حاصر، يقول: أخلقوا من غير خالق خلقهم؟ فهذا ممتنع، أم هم خلقوا أنفسهم؟ فهذا أشد امتناعاً، فعلم أن لهم خالقاً خلقهم، وهو الله سبحانه. وإنما ذكر الدليل بصيغة استفهام الإنكار ليتبين أن هذه القضية التي استدل بها فطرية بديهية مستقرة في النفوس، لا يمكن إنكارها، فلا يمكن لصحيح الفطرة أن يدعي وجود حادث بدون محدث أحدثه، ولا يمكنه أن يقول: هو أحدث نفسه). _
قال عز وجل: {أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً} (مريم: 67). فدلت الآيات على حاجة المخلوق إلى خالق ضرورة. _
ب- دلالة العناية المقصودة بالمخلوقات. _
والمراد: ما نشهده ونحس به من الاعتناء المقصود بهذه المخلوقات عموماً، وبالإنسان على وجه الخصوص. قال عز وجل: {ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً وخلقناكم أزواجاً} (النبأ: 6 - 8).
وقال عز وجل: {تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً} (الفرقان: 61).
وهذه العناية المقصودة ماثلة في العالم كله، فإذا نظر الإنسان إلى ما في الكون من الشمس والقمر وسائر الكواكب والليل والنهار، وإذا تأمل في سبب الأمطار والمياه والرياح، وسبب عمارة أجزاء الأرض، ونظر في حكمة وجود الناس وسائر الكائنات من الحيوانات البرية، وكذلك

الماء موافقا للحيوانات المائية، والهواء للحيوانات الطائرة، وأنه لو اختل شيء من هذا النظام لاختل وجود المخلوقات التي هاهنا. إذا تأمل الإنسان ذلك كله؟ عَلِم عِلم اليقين أنه ليس يمكن أن تكون هذه الموافقة التي في جميع أجزاء العالم للإنسان والحيوان والنبات بالاتفاق، بل ذلك من قاصد قصده، ومريد أراده، وهو الله سبحانه، وعلم يقيناً أن العالم مصنوع مخلوق، ولا يمكن أن يوجد بهذا النظام والموافقة من غير صانع وخالق مدبر.

ج- دلالة الإتقان والتقدير.

قال عز وجل: {وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون} (النمل: 88).

وقال عز وجل: {الذي خلق سبع سماوات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور} (الملك: 3).

وقال عز وجل: {الذي أحسن كل شيءٍ خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين} (السجدة: 7).

فهذه الآيات وأمثالها تلفت نظر المستدل إلى دلالة المخلوقات على باريها، من خلال ما يشاهد فيها من الانضباط والالتزام التام بنظام في غاية الدقة، ما كان له أن يوجد على هذه الحال دون قيّم ومدبر، وفي هذا أعظم دليل على بطلان الخرافة القائلة بحدوث العالم عن طريق المصادفة. _

د- دلالة التسخير والتدبير.

إذا نظرنا إلى هذا العالم وجدناه بجميع أجزائه مقهوراً مسيراً مدبراً مسخراً، تظهر فيه آثار القهر والاستعلاء لمسيّره ومدبره، وتتجلى فيه شواهد القدرة لمُخضعه ومذللـه سبحانه، بما لا يدع مجالاً للشك في وجود مدبر يدبره وقدير يمسك بمقاليده، كما قال عز وجل: {له مقاليد السماوات والأرض والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون} (الزمر: 63).

وقال عز وجل: {ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون} (النحل: 79). _

صور الاستدلال بالمخلوقات على الخالق _

قال عز وجل: {سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد} (فصلت: 53) .

فصور الاستدلال نوعان:

1- في الأنفس. 2 - في الآفاق.

1- صور الاستدلال بخلق الإنسان على الخالق (في الأنفس).

إن الاستدلال بخلق الإنسان لقي عناية خاصة وبالغة في القرآن، والدليل على هذا أنه ذكر في أول آيه أنزلها الله على نبيه الكريم، فقال عز وجل: {اقرأ باسم ربك الذي خلق ..خلق الإنسان من علق} (العلق: 1 - 2).

وقد أنكر الله على من ترك التبصر والتفكر في خلق النفس الإنسانية، فقال عز وجل: {وفي أنفسكم أفلا تبصرون} (الذاريات: 21).

بل قد صرح بعض العلماء بوجوب النظر في خلق الإنسان أخذاً من قوله عز وجل: {فلينظر الإنسان مم خلق} (الطارق: 5).

ويقول العلماء رحمهم الله: (الاستدلال على الخالق بخلق الإنسان في غاية الحسن والاستقامـة، وهي طريقة عقلية صحيحة، وهي شرعية دل القرآن عليها وهدى الناس إليها)، ولعل أكثر ما يلفت النظر في ذكر دلالة خلق الإنسان في القرآن كثرة الاستدلال بأطوار خلقه ومراحل نشأته وحياته إجمالاً وتفصيلاً، فقد جاء ذكرها إجمالاً كما في قوله عز وجل: {خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلماتٍ ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون} (الزمر: 6).

وقال أيضاً: {ما لكم لا ترجون لله وقاراً وقد خلقكم أطواراً}(نوح: 13 - 14).

وجاء مفصلاً كما قال عز وجل: {ولقد خلقنا الإنسان من سلالةٍ من طين ثم جعلناه نطفةً في قرارٍ مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين} (المؤمنون: 12 - 14).

إن نفس كون الإنسان حادثاً بعد أن لم يكن، ومولوداً ومخلوقاً من نطفة، ثم من علقة، هذا لم يعلم بمجرد خبر الرسول صلى الله عليه وسلم، بل هذا يعلمه الناس كلهم بعقولهم، سواء أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم أم لم يخبر. وهذا الدليل يعلمه الجاهل والعالم، إنه دليل على وجود خالق لهذا الإنسان ومكوّن له في جميع مراحل نشأته وحياته وهو الله سبحانه. _

2- الاستدلال بخلق السموات والأرض على وجود الله (في الآفاق).

دلالة خلق السموات والأرض على الخلق لا تقل أهمية عن دلالة خلق الإنسان، بل صرح القرآن بتفوقهما في الكبر والشدة على الإنسان كما في قوله عز وجل: {لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون} (غافر: 57). _فرفع السماء وإمساكها يتجلى فيهما العناية والتسخير والتقدير من قبل مدبر خالق مسخر، قال عز وجل: {إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليماً غفوراً} (فاطر: 41).

وقال سبحانه: {ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرؤوف رحيم} (الحج: 65).

وقال عز وجل: {الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون} (الرعد: 2).

قال ابن الوزير رحمه الله تعالى: _

(هذه حجة أجمع عليها الكفرة مع المسلمين فإن الجميع اتفقوا على أن العالم في الهواء لا يكون إلا بممسك وأن هذا الإمساك الدائم المتقن لا يكون من غير رب عظيم قدير عليم مدبر حكيم). _
ومن الأوصاف التي تكررت كثيراً في القرآن على أنها من الدلائل الكبرى على ربوبيته سبحانه وعلى البعث كذلك: إحياء الأرض بعد موتها، وجعلها صالحة للإنبات، وفتق السماء بالماء، وشق الأرض بأنواع الزرع والنبات، قال عز وجل: {وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون. ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون} (يس: 33 - 36).
يقول الإمام القاسمي رحمه الله تعالى: (ومن أظهر البراهين على وجوده تعالى: الحياة على الأرض، سواء نباتية أو حيوانية، فإن الحي لا يتولد إلا من حي، وبه يستدل على نفي القول الذاتي: يعني أن الشيء يخلق نفسه، وهو زعم تولد الحي من المادة، وذلك لأن المادة خالية من الحياة ساكنة، خاضعة للنظام الذي وضعه لها خالقها، ويستحيل أن تولد حياة في ذاتها أو غيرها، لا سيما العقل الإنساني بجميع قواه وغرائزه، فإنه لابد له من خالق عالم حكيم، إذ المواد لا تولد عقلاً، ولا تستطيع أن تخرج كائناً جهازياً متصفاً بأوصاف مباينة لنظام المادة).
منزلة العقل في الإسلام
إن الإسلام كرم العقل أيما تكريم، كرمه حين جعله مناط التكليف عند الإنسان، والذي به فضله الله على كثير ممن خلق تفضيلا، وكرمه حين وجهه إلى النظر والتفكير في النفس، والكون، والآفاق: اتعاظاً واعتباراً، وتسخيراً لنعم الله واستفادة منها، وكرمه حين وجهه إلى الإمساك من الولوج في ما لا يحسنه، ولا يهتدي فيه إلى سبيل ما، رحمة به وإبقاء على قوته وجهده. وتفصيل هذه الجمل في الآتي: _
1ـ خص الله أصحاب العقول بالمعرفة لمقاصد العبادة، والوقوف على بعض حكم التشريع، فقال سبحانه بعد أن ذكر جملة أحكام الحج {واتقون يا أولي الألباب} (البقرة: 197).
وقال عقب ذكر أحكام القصاص: {ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب} (البقرة: 197).
2 ـ قصر سبحانه وتعالى الانتفاع بالذكر والموعظة على أصحاب العقول، فقال عز وجل: {ومايذكر إلا أولوا الألباب} (البقرة: 269).
وقال عز وجل: {لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب} (يوسف: 111). وقال عز وجل: {ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون} (العنكبوت: 35)._
3 ـ ذكر الله أصحاب العقول، وجمع لهم النظر في ملكوته، والتفكير في آلائه، مع دوام ذكره ومراقبته وعبادته، قال تعالى: {إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض} إلى قوله عز وجل: {إنك لا تخلف الميعاد} (آل عمران: 190 - 194). _
وهذا بخلاف ما عليه أصحاب المذاهب الضالة في العقل، فمنهم من اعتمد العقل طريقاً إلى الحق واليقين، مع إعراضه عن الوحي بالكلية كما هو حال الفلاسفة، أو إسقاط حكم الوحي عند التعارض ـ المفترَى ـ كما هو حال المتكلمين، ومنهم من جعل الحق والصواب في ما تشرق به نفسه، وتفيض به روحه، وإن خالف هذا النتاج أحكام العقل الصريحة، أو نصوص الوحي الصحيحة، كما هو حال غلاة الصوفية.
أما أهل العلم والإيمان فينظرون في ملكوت خالقهم، نظراً يستحضر عندهم قوة التذكر والاتعاظ، وصدق التوجه إلى الخالق البارئ سبحانه، من غير أن يخطر ببال أحدهم ثمة تعارض بين خلق الله وبين كلامه، قال عز وجل: {ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين} (الأعراف: 54).
4 ـ ذم الله عز وجل المقلدين لآبائهم، وذلك حين ألغوا عقولهم وتنكروا لأحكامها رضاً بما كان يصنع الآباء والأجداد، قال عز وجل: {وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنآ أو لو كان آباؤهم لايعقلون شيئاً ولايهتدون ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون} (البقرة: 170 - 171).
5 -حرم الإسلام الاعتداء على العقل بحيث يعطله عن إدراك منافعه. _
ـ فمثلاً: حرم على المسلم شراب المسكر والمفتر وكل ما يخامر العقل ويفسده، قال عز وجل: {يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون} (المائدة: 90).
وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: (نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ كُلِّ مُسْكِرٍ وَمُفَتِّرٍ) رواه أبو داود، وصححه الحافظ العراقي.
6 ـ وجعل الإسلام الدية كاملة في الاعتداء على العقل وتضييع منفعته بضرب ونحوه، قال عبدالله بن الإمام أحمد: (سمعت أبي يقول: في العقل دية، يعني إذا ضرب فذهب عقله) قال ابن قدامة: (لا نعلم في هذا خلافاً).
7 -شدد الإسلام في النهي عن تعاطي ما تنكره العقول وتنفر منه، كالتطير والتشاؤم بشهر صَفَر ونحوه، واعتقاد التأثير في العدوى والأنواء وغيرها، وكذا حرم إتيان الكهان وغيرهم من أدعياء علم الغيب، وحرم تعليق التمائم وغيرها من الحروز.
فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا عدوى ولا طيرة) رواه البخاري.
الطيرة: التشاؤم بالشيء.
وفي رواية عن جابر رضي الله عنه: (لاعدوى ولاغول ولاصفر) رواه مسلم.
غول: جنس من الجن والشياطين، كانت العرب تزعم أن الغول في الفلاة تتراءى للناس، وتضلهم عن الطريق، فنفاه النبي صلى الله عليه وسلم.
صفر: كانت العرب تزعم أن في البطن حية يقال لها الصفر تصيب الإنسان إذا جاع وتؤذيه، فأبطل الإسلام ذلك._

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مَنْ اقْتَبَسَ عِلْمًا مِنْ النُّجُومِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنْ السِّحْرِ زَادَ مَا زَاد) رواه أبو داود وابن ماجة، وصححه الحافظ العراقي، والنووي. _

والمراد: النهي عن اعتقاد أن للنجوم ـ في سيرها واجتماعها وتفرقها ـ تأثيراً على الحوادث الأرضية، وهو ما يسمى بعلم التأثير، أما علم التسيير وهو الاستدلال ـ عن طريق المشاهدة ـ بسير النجوم على جهة القبلة ونحو ذلك فلا شيء فيه. _

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً) رواه مسلم. _

هذا مع أمر الشارع العبد أن يأخذ بالأسباب ويتوكل على خالق الأسباب، كما قال صلى الله عليه وسلم: (الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إلى اللَّهِ مِنْ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ) رواه مسلم.

المسيح بين الإنجيل والقرآن

أ- المسيح في القرآن الكريم:_

لقد ذكر القرآن مواضع مهمة من سيرة المسيح عليه السلام من حين ولادته إلى حين رفعه إلى السماء، وبَّين ضلال النصارى واليهود فيه واعتقاداتهم الفاسدة، وردَّ عليها وبيَّن كفرهم وضلالهم، وتفصيل ذلك كما يلي: _

1- مريم (أم عيسى) وحياتها:_

قال الله عز وجل: {إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما في بطني محرراً فتقبل مني إنك أنت السميع العليم فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإني سميتها مريم وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب} (آل عمران: 35 - 37). _

{وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون} (آل عمران: 42 - 44).

2 ـ ولادة المسيح عليه السلام

قال عز وجل: {واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغياً قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً فكلي واشربي وقري عيناً فإما ترين من البشر أحداً فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً} (مريم: 16 - 28).

3 ـ من معجزات المسيح عليه السلام

قال عز وجل: {فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوءٍ وما كانت أمك بغياً فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً} (مريم: 27 - 30)._

قال سبحانه: {ورسولاً إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين} (آل عمران: 49).

وقال: (قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدةً من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآيةً منك وارزقنا وأنت خير الرازقين قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين) (المائدة: 114 - 115).

وقال: (وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس) (البقرة: 87).

وقال: (إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلاً وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني وإذ تخرج الموتى بإذني وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين) (المائدة: 110). _

4 ـ عيسى نبي من أنبياء بني إسرائيل_

قال الله تعالى: (ورسولاً إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآيةٍ من ربكم) (آل عمران: 49).

وقال: {وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة} (الصف: 6).

وقال سبحانه: {وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل} (الزخرف: 59).
5 ـ دعوة عيسى عليه السلام
قال عز وجل: {يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار} (المائدة: 72). _
وقال تعالى: {ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الـذي حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون إن الله ربي وربكم فاعبدوه هـذا صراط مستقيم} (آل عمران: 50 ـ 51).
وقال سبحانه: {ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم} (الزخرف: 63 ـ 64).
وقال: {فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين} (آل عمران: 52 ـ 53).
6 ـ ليس المسيح إلا عبداً لله ورسولاً من رسله
قال الله تعالى: {إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه} (النساء: 171).
وقال سبحانه: {ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام} (المائدة: 75).
وقال: {لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً} (النساء: 172).
وقال: {قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً وجعلني مباركاً أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة مادمت حياً وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون} (مريم: 30 ـ 34). _
وقال: {إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل} (الزخرف: 59).
7 ـ نزول الإنجيل على المسيح
قال سبحانه: {وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل} (الحديد: 27).
وقال:{وآتيناه الإنجيل فيه هدىً ونور} (المائدة: 46).
8 ـ تبشير المسيح بمحمد [رسولاً من بعده
قال تعالى: {وإذ قال عيسى ابن مريم يابني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسولٍ يأتي من بعدي اسمه أحمد} (الصف: 6). فلما جاء الرسول [كفروا به: _
قال تعالى: {ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين} (البقرة: 89).
وقال: (ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لايعلمون) (البقرة: 101).
وقال: (ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق) (البقرة: 109).
9 ـ تكفير من ألّه المسيح أو عَبَده
قال تعالى: (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً) (المائدة: 17).
وقال: (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار) (المائدة: 72).
وقال: (وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم...) (المائدة: 116 ـ 117).
وقال سبحانه: (اتخذوا أحبـارهم ورهبـانهم أربابـاً من دون الله والمسيح ابن مريم) (التوبة: 31).
10 ـ إنكار القرآن على الغلاة من أهل الكتاب
قال تعالى: (يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السموات وما في الأرض وكفي بالله وكيلاً) (النساء: 171).
وقال: (قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قومٍ قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل) (المائدة: 77).

وذلك أن ولادة المسيح من غير أب كانت سبباً في اختلاف واسع الشقة، فبينما يزعم اليهود أن المسيح لقيط، وأن أمه بغي أتت به من الزنا، يذهب النصارى إلى أن عيسى إله في صورة البشر، جاء ليخلص بني آدم من خطيئتهم منذ خلق آدم إلى يوم القيامة، فنزل القرآن ليبين فساد اعتقاد الفريقين، وينسبهما إلى الغلو القبيح والشرود عن الحق والبعد عن سواء السبيل. _

11 ـ ما صلبوا المسيح بل رفعه الله إليه

قال تعالى: (وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علمٍ إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً) (النساء: 157).

12 ـ نزول المسيح قبل القيامة

قال عز وجل: (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً) (النساء: 159).

ب- المسيح في الإنجيل

كما هو معلوم فإن النصارى يؤمنون بأربعة أناجيل وهي ـ

1 ـ إنجيل متى.

2 ـ إنجيل لوقا.

3 ـ إنجيل مرقص.

4 ـ إنجيل يوحنا.

ولهذا سنذكر ملخصاً لفكرة المسيح لديهم من خلال هذه الأناجيل: _

1 ـ من هو المسيح؟

المسيح عند النصارى هو ابن الله الأزلي ـ تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ، وهم يعتقدون أن الله سبحانه وتعالى غضب على الجنس البشري بسبب خطيئة آدم وأكله من الشجرة، ولهذا رحمة بهم أرسل ابنه الوحيد إلى الأرض، حيث دخل رحم مريم العذراء البتول، وولد كما يولد الأطفال وتربى كالأطفال، ثم صلب ظلماً على الصليب ليكفر عن آدم وبني آدم الخطيئة. _

2 ـ المسيح هو الله وابن الله وثالث ثلاثة:

يعتقد النصارى أن الله حل في المسيح فاختلط جزءه البشري مع الجزء الإلهي، وأنه ابنه، وأنه شخص وأقنوم منفصل عنه، كلها اعتقادات للنصارى ولا يمكن الجمع بينها ولا يقبلها العقل البشري. _

3 ـ عقيدة التثليث

خلاصة هذه العقيدة أن الابن وهو المسيح، والأب وهو الله، والروح القدس وهو جبريل، ثلاثة أقانيم ـ أي أشخاص ـ وفي نفس الوقت هم واحد، وهذه العقيدة لا يمكن للعقل قبولها ولا توافق حتى السنن الكونية، ولهذا وجد لها النصارى حلاً، فقالوا لأتباعهم المقولة المشهورة: (اعصب عينيك واعتقد)، أي من غير أن تفكر هل هو مقبول عقلاً أم لا؟

4 ـ نسب المسيح

إن المتأمل في أناجيلهم يجد التباين الكبير والاختلاف الشديد بين إنجيل متى وإنجيل لوقا في سرد نسب المسيح عليه السلام، فكيف يكون الإنجيل هذا من عند الله، وأيهم الصواب؟ إن هذا دليل واضح على عدم قدسية الإنجيل وصحته، لأن التحريف والتبديل قد دخله، وهذا التباين والاختلاف من أقوى الأدلة.

لقد نسب كتاب الإنجيل المسيح إلى يوسف ومن ثم إلى داود وإلى إبراهيم. وهل كان يوسف أباً للمسيح حتى يكون نسبه من جهته؟ كلا، وإن كان لابد فليكن من جهة مريم أمه لا غير، كما نسبه القرآن الكريم.

5 ـ ولادة المسيح وحياته

لقد ذكرت الأناجيل ولادة المسيح وحياته بشكل يدعو للدهشة لما فيه من التناقض والاختلاف، مما يدل على وقوع التحريف والتبديل فيها، فخذ أمثلة على هذا:

أ ـ في إنجيل لوقا: أن ولادة المسيح كانت بعد الاكتتاب في عهد أغسطس، والثابت في التاريخ أن ذلك كان في السنة السادسة من ولادة المسيح.

بينما يقول متى: إن ولادة المسيح كانت في عهد هيروس، والثابت في التاريخ أنه توفي قبل ولادة المسيح بأربع سنوات.

ب ـ أن متى يدعي أن أبويه ذهبا إلى مصر خوفاً من هيروس الذي أمر بقتل جميع الصبيان. بينما يقول لوقا: إن أبويه ذهبا به إلى أورشليم ومنها إلى الناصرة وبقيا هناك إلى أن شابا.

ج ـ يقول متى: إن المسيح كان ملك اليهود، والتاريخ يكذب هذه الدعوى، فإن المسيح لم يكن يوماً ما ملكاً لليهود، بل هم الذين سعوا إلى الحكم واستطاعوا إصدار الأمر عليه بالإعدام.

6 ـ ما جاء في الأناجيل عن المسيح موافقاً لما في القرآن

أ ـ بشرية المسيح: حيث تقول بأنه ولد من مريم، وكان يأكل ويشرب ويتعب وينام وكلها من خصال البشر.

ب ـ أنه رسول الله:

جاء في إنجيل متى:40/10: (متى يقبلكم يقبلني ومن يقبلني يقبل الذي أرسلني).
ج ـ أنه رسول إلى بني إسرائيل خاصة:
ورد في إنجيل متى 24/15: (أن المسيح عليه السلام لحقته امرأة كنعانية تطلب منه شفاء ابنتها المجنونة فقال المسيح: لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة). _
وهذا مخالف لما يدعيه النصارى من عالمية دعوتهم لجميع الناس. _
د ـ أنه متبع لشريعة موسى عليه السلام ومكمل لها: _
يقول متى في إنجيله 17/5 : عن المسيح أنه قال: (لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل). _
هـ ـ أنه دعا إلى عبادة الله وحده لا شريك له: _
ذكر متى في إنجيله 10/4 : عن المسيح أنه قال: (للرب إلهك تسجد إليه وإياه وحده تعبد). _
الخلاصة
من خلال هذا العرض نخلص إلى ما يلي:
أولاً: أن عقيدة المسلمين كما تبين من نصوص القرآن الكريم في المسيح عليه السلام عقيدة مقبولة عقلاً، وتتطابق مع السنن الكونية والإلهية، بخلاف ما في سيرته في الأناجيل من المبالغة والأمور التي لا تقبل عقلاً، فمثلاً كيف يكون رباً ثم هو يقتل ويصلب ولا يستطيع أن يدافع عن نفسه. _
ثانياً: من خلال الوصف تظهر وسطية الإسلام تجاه المسيح عليه السلام، فلا غلو كالنصارى الذين جعلوه رباً وإلهاً، ولا جفاء كاليهود الذين جعلوه ابناً من الزنا ـ قبحهم الله ـ. _
ثالثاً: التوافق والتلاؤم بين المعلومات في القرآن عن المسيح عليه السلام وما يجب اعتقاده فيه، ولا توجد أي معلومة في القرآن حوله متضاربة أو متناقضة بخلاف الأناجيل، فإن المعلومات التي فيها متضاربة، فما يوجد في إنجيل يوحنا يخالف ما في إنجيل متى وهكذا. _
رابعاً: أن ما نقل إلينا في القرآن عن المسيح عليه السلام ثبت سنده بالتواتر القطعي الذي رواه الثقات عن الثقات بالأسانيد المشهورة المعلومة، وأما ما نقل إلينا عن المسيح في الأناجيل فلا سند له، ولا يعلم مصدره، وهذا يشكك في نسبة المعلومات عن المسيح وعن حياته. _
خامساً: مجمل عقيدة المسلمين من خلال القرآن في المسيح عليه السلام إنما هي تشريف وتكريم ورفع منزلته، ولا يوجد فيها تنقيص أو احتقار له بخلاف ما عليه الأناجيل من ذكر بعض ما ينقص من قدره، كالصلب والفداء ونحو هذا.
يقول الغزالي ـ رحمه الله ـ إن جولد تسيهر نموذج من إفك المستشرقين، ومن أعمدة المستشرقين ودهائهم، ولا شك أنه قرأ كثيراً من الأصول والمصنفات الإسلامية، ولكنه منذ قرأ وكتب، لم يحمل بين جنبيه إلا فؤاداً مترعاً بتكذيب الإسلام، فهو يدس إصبعه في كل شيء ليتخذ من أي شيء دليلاً على أن محمداً كاذب، وقرآنه مفتعل وسنته مختلقة، والإسلام كله منذ جاء ـ إلى أن بلغنا ـ مجموعة مفتريات.
ورجل مصطبغ الفكر والشعور بهذا المبدأ الثابت لا يجوز أن تكون له حرمة أهل العلم، ولذلك قلت: إنني لم أستطع بتة إقناع نفسه باحترامه.
وأحسن وصف له ولأمثاله قول الأستاذ أحمد فارس الشدياق: (إن هؤلاء المستشرقين لم يأخذوا العلم عن شيوخه، وإنما تطفوا عليه تطفلاً وتوثبوا فيه توثباً.
ومن تخرج فيه بشيء فإنما تخرج على القسس، ثم أدخل رأسه في أضغاث أحلام أو أدخل أضغاث أحلام في رأسه، وتوهم أنه يعرف شيئاً وهو يجهله.
وكل منهم إذا درس في إحدى لغات الشرق، أو ترجم شيئاً منها تراه يخبط فيها خبط عشواء، فما اشتبه عليه منها رقعه من عنده بما شاء، وما كان بين الشبهة واليقين حدس فيه وخمن، فرجح منه المرجوح وفضل المفضول).
والمستشرق المجري ألف كتابه عن الإسلام إسهاماً منه في النشاط الأميركي لخدمة المسيحية وإجابة لرغبة إحدى اللجان العاملة في هذا الميدان.
والأميركيون منذ دخلوا ميدان التبشير والاستشراق، زادوا القوى المناوئة للإسلام شراسة وإصراراً، وأمدوها بسيل موصول من المال والرجال، فهي لا تني تواصل هجومها العلمي، ودعايتها الماهرة ونحن نعرف أن من حق غيرنا التمسك بدينه والدعوة إليه، واستقبال الداخلين فيه بمسرة وبشر.
إلا أننا نقيد هذا الحق بشرط واحد، أن يكون بوسائل شريفة وصريحة.
أما اختلاس عقائد الآخرين بالرغبة، أو الرهبة، واستباحة الغش والكذب، والمكر والرشوة، فذاك ما لا يقبل.
وهناك من يقول: إن الحرب خدعة، وهؤلاء المستشرقون والمبشرون محاربون عن دينهم، ومحاربون لغيره من الأديان، فلهم أن يخدموا مبادئهم بكل وسيلة.
ولكن يجب فضح طواياهم وإلقاء الأضواء الكاشفة عليها.
والتحذير من المستشفى الذي ينتهز فرصة ضعف المريض، واضطراب أعصابه ليلقنه مبادئ دين ينأى عنه.
ومحاربة المعهد الذي يتظاهر بأنه يرفع المستوى العلمي، ويخدم الثقافة الإنسانية، وهو يغرس مبادئ دين لا يقره طلاب المعهد، ولا يقبلون اعتناقه.
ويخب تعريف الجماهير بكتب وصحف يزعم أصحابها أنهم فوق التعصب المذهبي وأن غايتهم البحث عن الحقيقة.

فإذا تابعت أقوالهم وأعمالهم وجدتهم صرعى التعصب الحاد، وأن غايتهم الأولى والأخيرة فتنة المسلمين عن دينهم بأروع وسائل الختل والمداهنة.
إنه يجب اعتبار الثعابين الزاحفة أخف شراً من ثعابين البشر، أولئك الذين يخفون طبائعهم اللاذعة وراء بسمات الوجوه، ونعومة اللقاء. فإذا استمكنوا أفرغوا سمومهم كلها في أجساد الضحايا المذهولة.
وقد بلونا عشرات ومئات من المبشرين والمستشرقين، وألوفا من الأتباع الذين سحروا بهم.. ورأينا أنه لابد من تجسيم المآرب التي يسعى لها هؤلاء وأولئك.. ووضعها أمام الأعين حتى يتبين القاصرون والأغرار أنهم أمام حملة صليبية علمية أخطر، ولا نقول أشبه بالحملات الصليبية التي استهدفت من ألف سنة اجتياح الإسلام ودك عواصمه، وفض الجماهير عنه.
وما دمنا نتحدث عن مستشرق يعين بكتابته النشاط التبشيري الأميركي، فلنعلم أن النشاط هو محور الجامعات الأميركية بالقاهرة وبيروت والآستانة.
وهذا النشاط أحرجته الظروف فكشف عن وجهه القناع في بيروت، لما هاج الطلبة المسلمون هناك على محاولات تنصيرهم وفرض دخول الكنيسة يومياً عليهم.
لقد قالت إدارة الجامعة في منشور عام يتضمن طابع هذه المعاهد وأشباهها:
(إن هذه كليات مسيحية أسست بأموال شعب مسيحي. هم اشتروا الأرض، وهم أقاموا الأبنية، وهم أنشأوا المستشفي وجهزوه، ولا يمكن للمؤسسة أن تستمر إذا لم يسندها هؤلاء، وكل هذا قد فعله هؤلاء، ليوجدوا تعليماً يكون الإنجيل من مواده، فتعرض منافع الحقيقة المسيحية على كل تلميذ.. وكل طالب يدخل مؤسستنا يجب أن يعرف سابقاً ماذا يطلب منه).
كما أعلن مجلس أمناء الكلية في هذه المناسبة:
(إن الكلية لم تؤسس للتعليم (العلماني) ولا لبث الأخلاق الحميدة، ولكن من أولى غاياتها أن تعلم الحقائق الكبرى التي في التوراة، وأن تكون مركزاً للنور المسيحي، وللتأثير المسيحي، وأن تخرج بذلك على الناس وتوصيهم به).
لكن المسؤولين عن التبشير سرعان ما استدركوا هذا الخطأ، فعادوا إلى العمل في ظل الغموض والتخفي ، مؤثرين الوصول إلى أغراضهم تحت عناوين عائمة، مثل: التجديد، الفن، النهضة، الحرية.. إلخ.
وتحت أسماء رجراجة المفهوم أمكن الوصول ـ عن طريق الصحافة ـ إلى إلحاق خسائر جسيمة بالإسلام والعاملين له. يقول أحد الأساتذة نقلاً عن مضابط مؤتمرات التبشير:
(يعلن المبشرون أنهم استغلوا الصحافة المصرية على الأخص للتعبير عن الآراء المسيحية أكبر مما استطاعوا في أي بلد إسلامي آخر. لقد ظهرت مقالات كثيرة في عدد من الصحف المصرية، إما مأجورة في أكثر الأحيان، أو بلا أجرة في أحوال نادرة).
والمعركة لن تهدأ، ما بقيت مسرحاً لتلك الدسائس ضد الإسلام، وساحة للنيل من العاملين له، والمحامين عنه.
وقد انعقد مؤتمر تبشيري في روما ، ووضع خططاً جديدة للغارة على العالم الإسلامي، ووكل إلى جيش المبشرين والمستشرقين أن يحقق هذه الأهداف، في الظلام لا في النور، وباستخدام كل وسيلة تفقد المسلمين إيمانهم دون ضجة، أو عراك، أو ألم.
وفي أثناء سير هذا الجيش حذراً مستخفياً، ترى أفراده يرقب بعضهم بعضاً، من يدري؟ لعل أحدهم يكتب بحثاً عن الإسلام متسماً بشارة الحياد العلمي، يجرفه طابع الحياد، فينصف هذا الدين بكلمة..!!
وعندما يقع هذا تتناوله الصيحات من كل جانب كي يلزم الطريق!!
مع الوضع في الاعتبار أنهم يقظون لكل حركة قد تعوق سيرهم أو تفسد خططهم، فإن حاول أحدهم أن يبدو محايداً أو يتخفف من أثقال التعصب تجد بقية المستشرقين يهبون في وجهه يطالبونه بأن يكون (موضوعياً) وأن يستخدم الطريقة العلمية وأن يلجأ إلى النقد ذي المستوى العالي وهكذاً.
ولا يعرف العقل ولا المنطق حداً لما يقوم به المستشرقون من تحريف للتاريخ الإسلامي، وتشويه لمبادئ الإسلام وثقافته، وإعطاء المعلومات الخاطئة عنه وعن أهله، وهم كذلك جاهدون بكل الوسائل لينتقصوا من الدور الذي أداه الإسلام في تاريخ الثقافة الإنسانية.
إن المستشرقين جميعاً فيهم قدر مشترك من هذا الخصام المتجني.
والتفاوت ـ إن وجد بينهم ـ إنما هو في الدرجة فقط، فبعضهم أكثر تعصباً ضد الإسلام، وعداوة له من البعض الآخر، ولكن يصدق عليهم جميعاً أنهم أعداؤه.
وإذا كان الاستشراق قد قام على أكتاف الرهبان والمبشرين في أول الأمر ثم اتصل من بعد ذلك بالمستعمرين ـ فإنه مازال حتى اليوم يعتمد على هؤلاء وأولئك، ولو أن أكثرهم يكرهون أن تنكشف حقيقتهم ويؤثرون أن يختفوا وراء مختلف العناوين والأسماء.
هل يلومنا أحد إذا وطنا العزم على استخراج هؤلاء المستشرقين من مكانهم ومزقنا الأغشية التي يلفونها على وجوههم، ونازلناهم في ميدان الجدل العلمي وجهاً لوجه؟
إنهم يريدون الإتيان على الإسلام، فكيف نتحرج نحن أن نأتي بنيانهم من القواعد؟
وهم يريدون الاستمتاع بحق الباحث المحايد، أو بحق العالم المجتهد في أن يصيب ويخطئ، ولو أنهم عشاق معرفة مجردة، يبحثون عنها بحرارة وإخلاص لعذرنا المخطئ منهم وأقلنا عثرته، وساعدناه على الوقوف واستئناف البحث والاجتهاد.
أما وهم محاربون خبثاء يصطنعون الطيبة للتوغل والاستمكان فهيهات أن نعاملهم إلا بذات أسلحتهم.

وشيء آخر يجب التنبيه إليه.
أن أفكار هؤلاء المستشرقين تبناها ناس من جلدتنا، يتكلمون بألسنتنا، ويظهرون بأنهم على ديننا، ويروجون هذه الأفكار، وكأنها نتاج عقولهم، وثمرات تفكيرهم.
وكل هذه الفتن تجعلنا ندع الهوادة في رد شبهات القوم، ونكتب دون ما توقير للأصنام المهشومة، وأن ذعر عبادها، وثارت ثائرتهم.
وقد أسهبنا القول حيث تقتضي الحاجة .
وغايتنا أن نجلو الحق. وأن نرد إليه كرامته المهدرة.
ذلك، وقد جاء كلامنا وسيلة لشيء آخر أهم من إحقاق الحق في قضية خاصة، جعلته وسيلة لتجلية الإسلام كله حيث ولدت الشبهة، ونجم الاعتراض.
الخداع
هناك مضاعفات وخيمة للجهل المركب وأثر شديد للخطر.
والجهل المركب هو نوع من العلم الخطأ، فعدم العلم بشيء ما، جهل بسيط، والعلم بهذا الشيء على خلاف الواقع جهل مركب.
ومن مضاعفات هذا الجهل أن تخدع به الأغرار، وأن تبذل الجهود لإشاعته ومد رقعته، وأن تزاحم به العلم الصحيح، حتى يضيق الخناق على الحقيقة فتزهق، وينفسح المجال أمام الباطل وتضطرب الحياة بالوساوس.
هذا الجهل الموجه، أو هذا العلم الموجه، عنوان صادق للبحوث التي كتبها عن الإسلام كثير من المستشرقين.. وروجوها بين قومهم ليرضوا ضغائنهم على الإسلام، ويشيعوا سخائمهم على نبيه الجليل الكريم.
وكتاب هذه البحوث لم يدخلوا ميدان العلم وبين حناياهم ضمائر سليمة، بل لم تخامرهم يوماً نية التجرد للحق والإخلاص في طلبه.
إنهم موظفون في إدارات الاستعمار فهمهم الغالب أن يلوثوا سمعة الإسلام، وأن يسوغوا المظالم النازلة بأهله. وذلك بإظهارهم وكأنهم أتباع رجل مبطل ودين مظلم.
المستعمرون يسخرون قواهم المادية لسحق هذه الأمة.
والمستشرقون يقدمون الأسباب العلمية والتاريخية لهذا العدوان، بأن يظهروا هذا الدين وأصحابه في شكل منكر، ويغلفوا أصوله وفروعه بحشد لا آخر له من الأكاذيب، حتى تبدو وكأنها بقايا خرافات يجب محوها محواً.
ومن دسائس الاستعمار في الشرق الإسلامي أنه مهد بين يدي هذه البحوث المزورة، فجعل فريقاً منا يقبل عليها، ويقبل بعض ما جاء بها.
ويمكننا عندما نؤرخ للإلحاد الحديث أن نرد أغلب آرائه المنحرفة وأحكامه الجائرة، إلى آثار الاستشراق وفنون الحاطبين في حبله، والغاوين معه، والمقلدين لأهله.
وقد آلينا أن نفضح هذه الكهانة العلمية، وأن نميط اللثام عن وجهها الدميم، فإن القدماء لم تدركهم هوادة في الإزراء على الفلسفات الضالة، وإنزال أصحابها المنزلة التي تليق بهم.
والطلاب الصغار يحفظون أن حمار الحكيم (توما) أحسن منه حالاً، برغم حكمته وهيبته.
قال حمار الحكيم (توما)
لو أنصف الدهر كنت أركب
فإنني جاهل بسيط وصاحبي جهله مركب..!!
وربما وجد في المستشرقين من بهره جلال الحق فنسي وظيفته الأولى واعترف بالفضل لذويه، اعترافاً كاملاً أو محدوداً.
لكن هناك من المستشرقين من يعتبرون من أخبث الرجال الذين أمسكوا بالقلم، وشردوا بالفكر عن نهجه السوي.
ومضاعفات الجهل المركب تبدو أشد ما تكون في أحلامهم التي يرسلونها عن هوى يكتنف قلوبهم.
وغريب أن يسمى هذا الهوس علماً.
وأنني أصارح جمهور القارئين بأن هناك بعض المستشرقين إن كانوا قد أفلحوا في شيء، فقد نجحوا في استثارة احتقارنا لهذا الضرب من المفتريات الجريئة الوقحة. ونحن لم نتجشم جهداً في تفنيد مزاعمهم، فهي ـ عند أولي العلم ـ ما أن تذكر حتى تنسف.
إن ثروتنا نحن المسلمين من الحقائق مفرطة الغنى، من أجل ذلك لا نبالي بهاجم مغرور، بل نرحب بمن تسول له نفسه أن يلقانا في ميدان الجدل العلمي، موقنين بالعقبى مثلما قال الله جل شأنه:
(بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون).
وأنه لمن المحزن أن تترجم إلى العربية كتب نفر من المستشرقين دون أن تقرن بالردود المستفيضة على ما حفلت به من شبهات.
إن هذه التراجم المجردة تشبه أن تكون عوناً للغزو الثقافي ومداً لغيومه في آفاقنا.
يقول أحد المشايخ وهو يتحدث عن كتابات المستشرقين ضد الإسلام:
ومن أخطر هذا الفريق المموه بعض المستشرقين، العريق في عداء الإسلام، الماضي في هذا السبيل طول حياته.
وهم رجال أوائل القرن الميلادي الحاضر، ولهم دراسات في القرآن وعلومه، والحديث وعلومه، والفقه وأصوله، وفي الكلام وفرق المتكلمين.

إلا أنهم محتالون ماهرون في توليد ما يشاؤون من نصوص يتصيدونها من مصادر تعجبهم باعتبار ذلك غايتهم، مغالطين في تحميلها ما لا تحتمل من المعاني عند أهل البصيرة، ومتجاهلينً اختلاف منازل تلك المصادر في الثقة والتعويل.
فلو شكلت لجنة علمية لفحص كتب هؤلاء المنطوين على عداء بالغ للإسلام لوضح الصبح لكل ذي عينين، ولسهل الرد على الماكرين المخادعين.
لكن ترجمة تلك الكتب من غير عدة كافية، ونشرها بدون ردود وافية، وعرض شكوك أولئك المشككين من أعداء الإسلام هكذا لأنظار الناطقين بالضاد تكون نيابة عن الفاتنين في إيصال تشكيكاتهم إلى البيئات الإسلامية.
وهذا ما لا يرضاه أحد.
فيجب أن تكون ترجمة كتب هؤلاء ونشرها مشروطين باستيفاء الردود عليها كاملة غير منقوصة وفي غير هوادة.

محمد رسول الله (ﷺ)
الرسالة الخاتمة بين رسالات السماء
قد يظن شخص ممن يكونون الأحكام جزافاً أن الشمس لا تعدو شبراً في شبر، وعذره أنها تبدو في رأي العين كذلك.
فهل تتحول الشمس إلى كرة قدم لأن ذهن واحد أو جماعة من الناس ضاق عن ضخامتها الهائلة، وبعدها السحيق؟
إن العظيم لا يمسخ صغيراً لأن ظنون المعتوهين أخطأت فهمه!
ومن قرون طوال دب على أرضنا هذه نفر من الخلق، نظروا إلى صاحب الرسالة العظمى نظراً شزراً، ثم قال بعضهم: (يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون)!!
وقال بعض آخر: (هذا ساحر كذاب)، (أجعل الآلهة إلهاً واحداً).
ومضى صاحب الرسالة في طريقه يبذر الحق، وينشر العلم، ويحيي القلوب، وينشئ من الرمم التي استهلكتها الخرافة أجيالاً ناضرة، ويقيم أمة تكسر صلب الباطل، وتقذف بالرعب في نفوس الشياطين.
ما هذا.. إن الشمس لم تتحول كرة قدم، ولا النبوة تحولت مجون كهان.
لقد ذاب الافتراء وأهله، وتلاشى الجهل والجاهلون، وبقيت الحقائق فوق التهم والترهات.
لطالما استطالت السن في قيم العباقرة، فما أثمرت الاستطالة شيئاً إلا انقطاع أصحابها بلغطهم وخلود الأبرار بمبادئهم وأهدافهم.
وقد جاء المستشرقون اليوم يرددون الإفك الذي لغط به قديماً صعاليك الصحراء، ويروجون لحساب الاستعمار أغاليط تافهة.
لا جديد هنالك، إننا نعرف هذه التهم، ونعرف ما يدحضها، ويهيل عليها التراب.
لذلك كان هناك ضجر ثقيل في مناقشة بعض المستشرقين
فالشبهات التي علقت بذهن بعضهم وأطال سردها وشرحها، سبق أن ذكرها الكثير! أو ذكر ما يشابهها ويدانيها وقد تم الرد عليها من بعض العلماء دون عناء.
ولا غرو فهؤلاء المستشرقون هم عرق واحد، وجمعتهم راية واحدة، فليس بغريب أن تكثر الموافقات في أحكامهم، وإن تفاوتت طرق الفكر، ووجهات النظر!
وبعضهم من بسط الكلام في أصل الإسلام، والروافد التي أمدته على مر العصور.
وهو يرى أن الإسلام ليس من صنع محمد وحده، بل هو أيضاً من صنع الأجيال التي جاءت بعده، فالعقيدة والشريعة- فينظر هذا البعض- بدأتا على يد محمد [في القرن الأول، ثم أتى المفكرون الصالحون ـ والظالمون كذلك. فنموا هذا التراث الساذج الذي تركه النبي العربي، وزادوا فيه كماً وكيفاً، حتى بلغ الحد الذي وصل إليه في عصرنا هذا.
ومعنى هذا الكلام بلغة الموازين أن الإسلام الذي خلفه محمد لم يكن يساوي أكثر من أقة، وأنه إذا كان يساوي الآن عشر أقات، فإن هذه التسع جاءت من إضافات العقل الإسلامي طول أربعة عشر قرناً!
ثم إن العقل الإسلامي استجلب هذه المقادير الزائدة من شتى الثقافات والحضارات التي اتصل بها.
بل إن محمداً نفسه لم يأت بهذا الدين، لا من عند الله، ولا من عند نفسه، لقد نقل أغلب أصوله وفروعه من الرومان والفرس والهنود، واستطاع أن يمزج هذه النقول المجلوبة بنفسه ومشاعره، وأن يقتنع بأنه صاحب رسالة لإصلاح العرب الوثنيين، ثم مضى في طريقه حتى بلغ ما بلغ!
وهناك من أساطين المستشرقين وأغزرهم علماً ـ يؤلف كتبا للتدليل على هذه المزاعم! وتعليل ما يحتاج إلى تعليل.
وهذه الكتب مملوءة بالأساطير والتي منها:
قالوا: إن الأرض محمولة على قرن ثور.
ـ حسناً، فما هو سر الزلزال؟
قالوا: اهتزاز الأرض حين ينقلها الثور من القرن الأيمن إلى القرن الأيسر!
ـ فما هو الرعد؟
قالوا: صوت خواره المتقطع حين يشاء الخوار.

ـ فما هو المد والجزر؟
قالوا: آثار شهيقه وزفيره حين يرسل أنفاسه ويستردها فوق صفحة الماء.
إن هذا التفكير البقري لن يعجز عن التعليل لما يعتقد.
والبعض كتب مئات الصفحات للاستدلال على أن العقيدة والشريعة هبطتا على محمد من أي ناحية.. إلا من السماء.
وأنهما بدأتا كائناً صغيراً، ثم تضخم على مر الأيام.
وسنرى قيمة هذا الافتراء بل قيمة الاستشراق كله، عندما يتهاوى كبير من زعماء العصابة في مجال البحث الحر، وعندما يظهر هؤلاء العمالقة جميعاً، وهم على حقيقتهم العارية، أناس حاقدون كذبة.
قال البعض عن محمد [: فتبشير النبي العربي ليس إلا مزيجاً منتخباً من معارف وآراء دينية، عرفها أو استقاها بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية وغيرها التي تأثر بها تأثراً عميقاً، والتي رآها جديرة بأن توقظ عاطفة دينية حقيقية عند بني وطنه.
وهذا كلام باطل، فإن محمداً ـ بلغة عصرنا ـ قبض على الفكر اليهودي والنصراني، وقدمه إلى الضمير العالمي متهماً بالتزوير على أوسع نطاق في ميداني الاعتقاد والتشريع.
ولم يكن هذا الاتهام مبهماً ولا مجملاً، بل واضحاً مفصلاً. ذكر في أعقاب دعوة مسهبة حارة لتوحيد الله، وإصلاح العمل، وترقية السلوك الفردي والجماعي.
دعوة لا نظير لها في الكتب الموجودة بأيدي من ينتسبون لغي الإسلام. فكيف يعد المصوب المرشد ناقلاً عن المخطئين الشاردين؟
وبعض هؤلاء لما لمس حرارة الإخلاص، وقوة الصدق، ونبل الغاية في سيرة محمد، أراد أن يوفق بين وفرة هذه الخلال، وبين ما نسبه إليه من اختلاق الرسالة، واستقاء أفكارها من الناس فقال: لقد تأثر بهذه الأفكار تأثراً وصل إلى أعماق نفسه، وأدركها بإيحاء قوة التأثيرات الخارجية، فصارت عقيدة انطوى عليها قلبه، كما صار يعتبر هذه التعاليم وحياً إلهياً فأصبح ـ بإخلاص ـ على يقين بأنه أداء لهذا الوحي.
أي أنه تخيل فخال، وتصور أن المعاني التي تجيء فؤاده لا منبع لها إلا الوحي فاعتقد ـ مخدوعاً ـ أنه رسول، وأنه مصطفى من السماء.
والحقيقة أنه لا وحي ولا رسالة.. هكذا يحدثنا بعض هؤلاء المستشلرقين الحاقدين.
ونحن نتساءل هل هؤلاء ينكرون الوحي جملة؟
إن كان الأمر كذلك فلا نبوات البتة.
وسقطت ديانتهم قبل أن تسقط الديانة التي يهاجمونها.
وارتفعت الثقة بكل إنسان زعم يوماً أن ملكاً جاءه، وأن وحياً نزل عليه، فكلهم كذبة.
وإن كانوا يؤمنون بالوحي، ويصدقون أنبياء اليهودية أو النصرانية وحدهم، قلنا لهم: ما سر هذه التفرقة؟ أهو تعصب لما ورثتم عن آبائكم وقومكم؟ لكم ذلك، ولكن لا تسموا هذا المسلك علماً نزيهاً ولا بحثاً محايداً.
وإن كان اتهام نبي بالكذب، ووصف آخر بالصدق نتيجة تقليب لدلائل الإثبات وتمحيص لحقيقتها، فنقول إن محمداً ترك بين أيدينا ما يشهد بنبوته، فما الذي تركه غيره؟ أعني أن جمهور الأنبياء مات من دهر بعيد، وقد وصلت إلينا أسماؤهم ومواريثهم الروحية والفكرية فقط.
ونحن جميعا لا نعرف قيم هؤلاء الرجال إلا من خلال النظر الفاحص لكتبهم وتعاليمهم.
وإني لأقولها صريحة لا تتحمل لبساً ولا التواء.. إنني آمنت بمحمد بعد ثقة من أن تعاليمه طابقت ثمرات العقل الحر.
وأنني لم أؤمن بعيسى وطهارة نسبه وعفاف أمه، إلا لأن محمداً الذي استيقنت من صدقه هو الذي أكد لي ذلك.
ولولا احترامي للإسلام احتراماً نابعاً من جهد عقلي محض، ما قبلت إلى قيام الساعة أن أستمع لقصة عيسى ابن مريم على النحو الذي جاءت به.
ثم أن لمحمد كتاباً، أرى أنه من عند الله، ويرى المستشرقون أنه من عند نفسه، فماذا لموسى وعيسى؟ ليست لهم كتب من هذا الطراز، أو ـ بالتعبير الصحيح ـ لم تصل إلينا عن طريقهم كتب بهذا الميسم المبين.
غاية ما هنالك صحائف كتبها أناس كثيرون تضمنت نتفاً من تعاليم أولئك النبيين.
وقيمة هذه الصحائف من ناحيتي السند والمتن تشبه ـ مع التجوز ـ قيمة بعض الأحاديث المروية عن الرسول محمد بن عبدالله، وهي الأحاديث التي لم ير بعض الحاقدين أي حرج في نفيها حيناً وإبداء الريبة فيها حيناً آخر.
القيمة العلمية لهذه أو تلك سواء.
الانقياد لله طبيعة الأديان كلها
وبعض المستشرقين يغمز كلمة الإسلام ويرىأنها تعني الانقياد والخضوع والتبعية.
وذلك في نظرهم إلغاء للإرادة وذوبان للطبيعة البشرية في قوى غيبية غامضة. يقول بعضهم: الإسلام معناه الانقياد، انقياد المؤمنين لله، فهذه الكلمة تركز أكثر من غيرها على الوضع الذي وضع فيه محمد المؤمنين، بالنسبة إلى موضوع عابدتهم وهو الله. إنها كلمة مصطبغة قبل كل شيء بشعور التبعية القوي الذي يحس به الإنسان إحساساً قوياً، أمام القدرة غير المحدودة، التي يجب أن يخضع لها وينزل في سبيل ذلك عن إرادته الخاصة.
هذا هو المبدأ السائد في ذلك الدين، فهو الذي يلهم أو يوحي جميع مظاهره وآرائه وصوره وأخلاقه وعباداته، بل هو يطبع العقلية التي يريد تثبيتها في الإنسان.

نعم، نحن المسلمين نرى أن الدين انقياد لله، وانقياد لما أمر ونهى، وإلغاء للهوى الشخصي إذا ضاد حكماً من أحكام الله.
ولا يكتمل الدين في نفس امرئ إلا إذا ملأها هذا الشعور مثل ما قال الله عز وجل:
(فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً).
وأي غضاضة في هذا؟
وماذا يكون كنه العلاقة بين الله والإنسان إذا لم يكن يقيناً مقروناً بالطاعة المطلقة؟
إذا لم أكن تابعاً لله فماذا أكون؟
إذا كان الله رب كل شيء، ومليكه، وسيده، فأي نكير في أن أكون عبداً له، لا أفعل إلا ما أمرني به ولا أسير إلا وفق هداه؟
إن الأديان منذ بدأت إلى أن ختمت لم تعرف إلا هذا المعنى. وذلك سر الحكم الأزلي الأبدي الذي يوحي به قوله جل شأنه: (إن الدين عند الله الإسلام).
إن نفراً من المستشرقين يتهكم بهذا المعنى، ويقول: إن إله المسلمين جبار مخوف لا تكن له القلوب إلا الوجل والاستسلام!
أما إله المسيحية فهو رحيم أرسل ابنه الوحيد لينتحر على الصليب فدى لخطايا خلقه!!
ومن ثم فصلة المسلمين بربهم قوامها الرهبة، وطابعها العبودية الذليلة.
أما صلة المسيحيين بربهم فقوامها الحب المتبادل.
ونحن نقول: على رسلكم.. إن إلهنا وإلهكم واحد.
واحد لا ولد له، ولا صاحبة.
يصف نفسه فيقول لمحمد نبيه: (نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم).
ويقول: (اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم).
فالزعم بأننا نعبد إلهاً لا يعرف إلا بالجبروت والإرهاب غلط وكذب.
وهو كالزعم بأن هذا الإله غسل خطايا المجرمين بدم ابنه الحبيب.
إن النفس المجرمة لا يغسلها من خطاياها إلا أن تتطهر هي وتقلع عن غيها.
وليس يغني عن القلب الأسود قربان يتقدم به بشر أو ملك. إن ذلك مسخ للفضيلة وجور في القضاء.
ولهذا أمر الله محمداً أن يتلو على الناس هذا الكلام:
(قل أغير الله أبغي رباً وهو رب كل شيء ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون).
إن العبودية لله تعني التحرر مما سواه، وتلك هي السيادة التي لا تدانيها سيادة.
والإنسان الذي يشعر بأن خضوعه لله وحده حق، وأن ذلته لغيره باطل، إنسان عظيم بلا ريب، وهو في جنبات هذا الكون الرحب لا يقل منزلة عن الملائكة الكرام إن لم يزد.
ثم الإنسان المقر لله بالعبودية يدين له بالسمع والطاعة وينفذ أوامره بحب وتقدير.
ولما كانت أوامر الله خيراً محضاً فأسعد الناس بثمراتها في العاجلة أولئك العباد المخبتون.
فهل هذه العبودية هي ما يضايق المستشرقين؟
إننا من غير مقارنة بين الأديان، نحب أن يسمع هؤلاء الحاقدين كلام (جان جاك روسو) في المسيحية والعاملين بها يوم بدأت (أوروبا) تشق طريقها للحياة وتتلمس مستقبلاً أنضر.
قال: (إن المسيحية دين روحاني تماما، لا تشغله سوى أمور السماء وحدها فوطن المسيحي ليس في هذا العالم.
وصحيح أنه يقوم بواجبه، ولكن يقوم به دون مبالاة بنجاح ما يعهد به إليه أو فشله فيه، فهو إذن لا يجد ما يلوم عليه نفسه.
إنه لا يهمه كثيراً أن تسوء الحال أو تتحسن على هذه الأرض.. فإذا ازدهرت الدولة لا يكاد يجرؤ على التمتع بالبهجة العامة، بل يخشى أن يفخر بمجد بلاده.
وإذا هلكت الدولة يبارك يد الرب التي ألقى ثقلها عن شعبه).
ويستطرد روسو في هذا الوصف فيقول:
(ويجب في هذه الحالة أن يكون جميع المواطنين بلا استثناء مسيحيين صالحين على السواء حتى يسود السلام المجتمع ويعم التوافق.
ولكن إذا وجد ـ لسوء الحظ ـ رجل واحد طموح.. مراء واحد ـ كأتلينا مثلاً، أو كروموبل ـ فإنه سيجد بلا ريب سوقاً رائجة بين مواطنيه الأتقياء.. فإذا استطاع أحد من أولئك المتطلعين أن يفرض نفسه على مواطنيه ويستولي بخدعة ما على جزء من السلطة العامة، فسرعان ما يصير موضع كل تكريم، فهي إرادة الله أن يكون موضع احترام، وسرعان ما يصير صاحب سلطان وإرادة الله لشخصه أن يطاع..)!!
ثم يقول روسو:
(بيد أني أخطئ، إذ أتكلم عن جمهورية مسيحية.. فالكلمتان متنافيتان..
إن المسيحية تبشر بالعبودية والطاعة، وروحها ملائمة أكثر مما ينبغي للطغيان، ويستغل الطغيان دائماً هذه الحقيقة لصالحه.. إن المسيحيين الحقيقيين خلقوا ليكونوا عبيداً..).

ثم يقول أيضاً:
(ويقال لنا: إن الجنود المسيحيين ممتازون، وأنا أنكر ذلك وأتحدى من يثبت لي ذلك! أما أنا فلا أعرف كتائب مسيحية!
وسيذكر لي البعض الحروب الصليبية، ولكني دون أن أناقش في قيمة الصليبيين أقول: إنهم لم يكونوا مسيحيين، بل جنود القساوسة..
ومواطني الكنيسة.. فالوطن الذي قاتلوا من أجله كان وطناً روحياً.. ولست أدري كيف جعلته الكنيسة زمنياً)؟؟
و(روسو) أحد الفلاسفة الاجتماعيين الذين أشعلوا الثورة الفرنسية، وحرروا جماهير كبيرة. كانت ترسف في قيود الكهنوت والإقطاع.
إنه يفهم الإنسان كائناً له ذات تناط بها التكاليف، وإرادة تحمل مسؤوليتها كاملة.
وذاك تفقده فما وجده فكتب ما كتب.
وليس بعد هذا وزن للدعوى بأن الإسلام كان جائراً على الفرد، حاقراً لشأنه. وخاصة عندما تجيء هذه الدعوى من أولئك الغربيين الذين يحاولون الحط من قدر الإسلام، حاسبين ذلك يعلي من قدر المسيحية ويرفع شأنها.
وأكثر هؤلاء القوم يعلمون من أمر الإسلام ما يعلم هذا الكاتب الحر، إلا أنه يعز عليهم أن يقولوا كلمة الحق، إذا كان فيها ما يزكي الإسلام أو يكشف حقيقة من حقائقه المشرفة.
لا تفاوت بين الإسلام في مكة والمدينة
ونحن نسخر من المستشرقين حين يرون أن محمداً اقتبس معارفه الإلهية ومبادئه التشريعية من راهب أو كاهن.
إن محمداً الذي قدم للعالم أنفس العقائد والشرائع في أرقى أسلوب وأنصع بيان، لو كان أتى بهذا الدين من عند نفسه لا من عند الله، لكان معنى هذا أن البشر أقدر على صنع الأديان من رب البشر، وإلا كيف يتصور أن القرآن عمل إنساني، وأن العهدين القديم والجديد، عمل إلهي؟
ثم بأي وجه يغضي المستشرقون عن المتناقضات النابية لديهم، ولا يلفت أنظارهم إلا أن رب المسلمين جبار يتطلب العباد الأذلة؟
أهذا هو العيب الذي لاحظوه على عقيدة التوحيد، وبرئت منه عقيدة التثليث؟
أهذا هو العيب الذي لاحظوه على مبدأ: (ليس للإنسان إلا ما سعى) ولم يلاحظوه على مبدأ: (اغلط واعترف للكاهن وثق أن دم المسيح قد ضمن لك الغفران)؟
إنهم يختلقون القشة في عيون غيرهم ويرونها مجسمة، ولا يرون الخشبة التي تعمي أبصارهم.
ومن هذه المزاعم أيضاً الحكم على الدعوة الإسلامية بأنه: (لا جدة ولا طرافة في هذه الدعوة)
والقول بأن: (الوحي الذي نشره محمد في أرض مكة لم يكن ليشير إلى دين جديد، فقد كان تعاليم واستعدادات دينية نماها في جماعة صغيرة، وقوى في أفراد هذه الجماعة فهماً للعالم، مؤسساً على الحكم الإلهي)
ثم القول: (إنه في المدينة فقط ظهر الإسلام نظاماً له طابع خاص).
هذا الكلام جهالة وتخليط، فإن أهل مكة الذين يعرفون النصرانية جيداً قالوا لما سمعوا دعوة الإسلام: (ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة).
أي أن ما قرع أسماعهم هو شيء جديد غير معهود في الديانات الوثنية والكتابية المحرفة، وذلك حق.
فإن التوحيد المطلق، المنكر للبنوة والولاة، الرافض لتسوية أي مخلوق بالله، كان شيئاً جديداً طريفاً أنطق الألسنة بهذا

الاستغراب: (أجعل الآلهة إلهاً واحداً، إن هذا لشيء عجاب، وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم، إن هذا لشيء يراد).
فهل يصح القول بأن دعوة الإسلام لا جدة فيها ولا طرافة؟
وإذا كان القرآن النازل في مكة لا يكون ديناً جديداً، فماذا يكون؟
إن الوحي المكي جمع كل الآداب، والوصايا، والمبادئ الرفيعة الموزعة في صحائف العهدين القديم والجديد، وزاد عليها آداباً، ووصايا، ومبادئ أخرى احتاج إليها العالم في تقويم فطرته وصيانة حياته، وذلك كله إلى جانب ما صحح من عقائد، واستن من شرائع لم تكن معروفة للعبادات الأصلية.
فكيف يوصف القرآن المكي بأنه (استعدادات دينية) وليس ديناً جديداً؟
إن سورة الأنعام وحدها أو سورة الإسراء وحدها ـ وهما مكيتان ـ تضمنتا من حقائق الدين ما يربو على الأناجيل كلها.
فإذا لم يكن الإسلام في مكة ديناً، فلن تكون اليهودية ولا المسيحية ديانات.
الإسلام في مكة هو الإسلام في المدينة.
في سورة الصافات: {إن إلهكم لواحد}.
وفي سورة البقرة:{وإلهكم إله واحد}.
والأولى مكية والأخرى مدنية.
في سورة يونس: {إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض لآيات لقوم يتقون}.
وفي سورة آل عمران: {إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب}.
والأولى مكية والأخرى مدنية.
في سورة لقمان: {تلك آيات الكتاب الحكيم هدى ورحمة للمحسنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون}.

وفي سورة البقرة: {ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون}.
والأولى مكية والأخرى مدنية.
إن المعاني والأغراض متشابهة بين مكة والمدينة، لأنها جميعاً من عند الله.
الله الذي أنزل القرآن هنا وهناك واحد.
والرجل الذي تلقاه في كلا البلدين واحد.
وما تأسس في العهد الأول كان الدعامة لما جاء في العهد الثاني، يصدق بعضه بعضاً ويمهد له ويتلاقى معه.
وما نقضت عقيدة ولا خلق، ولا حلال ولا حرام عرف في مكة بشيء جد بعد ذلك في المدينة.
حتى الجهاد بدأ في مكة حرب كلام، وخصام مبادئ، ونذراً يهدر بها الوحي النازل بمكة مثل: (كلا لئن لم ينته لنسفعاً بالناصية ناصية كاذبة خاطئة).
ومثل: (وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلاً).
ومثل: (إنهم يكيدون كيداً وأكيد كيداً فمهل الكافرين أمهلهم رويداً).
وتطورت الحرب إلى حيف من المشركين الأقوياء صودرت فيه أموال المسلمين وحرياتهم، واستبيحت دماؤهم وأعراضهم.
ثم دخلت الحرب بالهجرة في مرحلة أخرى بعدما تكون للمسلمين جيش يرد اللطمة بمثلها.
فأين هو التفاوت بين إسلام مكة والمدينة كما يزعمه هذا الذهن المريض؟ اسمع إليه يقول:
(إن العصر المدني قد أدخل تعديلاً جوهرياً حتى في الفكرة التي كونها محمد عن طابعه الخاص، ففي مكة كان يشعر أنه نبي يتمم برسالته سلسلة رسل التوراة، وأنه لهذا عليه ـ مثل أولئك الرسل ـ أن يقوم بإنذار أمثاله في الإنسانية وإنقاذهم من الضلال. أما في المدينة ـ وقد تغيرت الظروف الخارجية ـ فقد تغيرت مقاصده وخططه، واتجهت اتجاهاً آخر بحكم تلك الظروف الخارجية، ولا غرو فقد وجد نفسه في بيئة تختلف عن بيئة مكة، فكان هذا مما جعله يدفع إلى المقام الأول مظاهر أخرى من مظاهر رسالته النبوية).
تعديل جوهري في مقاصد النبوة وخططها لتغير البيئة؟! هذا والله هو اللغو بعينه.
إن الإسلام اكتمل بناؤه في المدينة بعدما وضعت دعائمه واستبانت معالمه في مكة على ما رأيت، ما تغير مقصد ولا تبدلت وجهة.
ولننظر إلى الدليل الذي ساقه البعض ليؤيد كلامه. يقول ـ عن الرسول بعد انتقاله إلى المدينة:
(إنه يريد الآن إصلاح دين إبراهيم وإعادته إلى أصله بعد أن نال منه التغيير والإفساد، وكان تبشيره مختلطاً ببعض التقاليد القديمة التي تتعلق بإبراهيم).
أي أن الرسول [تحول في العهد المدني إلى الكلام عن دين إبراهيم وإحياء تقاليده.
أما في مكة فلم يكن هناك شيء من هذا.
وهذا كذب، فإن القرآن المكي جاء فيه قول الله جل شأنه:
(شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه).
وجاء فيه: (ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك).
وجاء فيه عن القرآن نفسه: (وإنه لفي زبر الأولين).
أي خلاف بين هذا القرآن المكي وبين قوله تعالى: (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم..) وهذه الآية مدنية.
يقول عن وظيفة الرسول في المدينة:
(لقد أصبح يريد إقامة دين الله الواحد كما جاء به إبراهيم كما أنه بوجه عام كان مصدقاً لما سبق أن أوحاه الله لمن تقدمه من الرسل والأنبياء).
فهل كان الرسول في مكة يفعل غير هذا؟
إن محمداً في مكة يقرأ على الناس في سورة الأعلى هذه الآيات: (قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى).
فيجيء مستشرق في آخر الزمان يقول: إن محمداً لم يدع إلى دين إبراهيم إلا في المدينة بعد ما عدل موقفه في مكة!!
وقريب من هذا السخف زعم هذا المستشرق أن محمداً ذكر في قرآنه ـ بإيعاز من أهل الكتاب الذين أسلموا معه ـ أن التوراة والإنجيل محرّفان، فإيعاز أهل الكتاب الذين يتملقونه هو السبب في اتهام هذه الكتب.
أما الخلاف الجوهري في أصول العقيدة، وإسهاب القرآن في تقرير التوحيد المطلق، وتنزيه الأنبياء مما نسب إليهم على عكس ما تضمنه العهد القديم والجديد فهذا لا يعني تحريف الكتب المتداولة في أيدي القوم!
كأن محمداً كان يقر ما ورد فيها لولا من أسلم من اليهود والنصارى وأغراه باتهامها..! إن هذا لغو من القول عجيب.
حول بلاغة القرآن في مكة والمدينة
وهناك من يرى أن القرآن في مكة كان ذا قيمة رفيعة.. أما في المدينة فقد هبط مستواه.
ويظهر أن هؤلاء لا يحسنون فهم ما يقتضيه تغاير المعاني من تنوع الأداء.

فتقسيم المواريث مثلاً إذا كان موضوع آية، فإن التعبير لا يجوز أن يجيء عاطفياً حماسياً كما يجيء عند وصف أهوال القيامة بطريقة تستهدف قمع الغرائز المتمردة.
والحديث عن جلال الله من خلال التأمل في عظمة الكون يقتضي أسلوباً آخر غير أسلوب سرد أحكام الزواج والطلاق مثلاً.
والبلاغة إنما هي رعاية مقتضى الحال.
ومن ثم فمحاولة الطعن في بلاغة بعض القرآن لأن هذا البعض ليس مثيراً، ولا حاد الإلقاء هي هزل لا جد فيه.. وعلى هذا الأساس نقرأ ما كتبه هؤلاء حول بلاغة القرآن :(بديهي أن التغير الذي حدث في الطابع الشخصي لمحمد قد أثر في أسلوب القرآن وشكله الأدبي.. ففي العصر المكي جاءت المواعظ التي قدم فيها محمد الصور التي أوحتها حميته الملتهبة في شكل وهمي خيالي حاد.. لكن حمية النبوة وحدتها أخذت في عظات المدينة والوحي الذي جاء بها تهدأ رويداً رويداً حيث أخذت البلاغة في هذا الوحي تصبح ضعيفة شاحبة كما أخذ الوحي نفسه ينزل إلى مستوى أقل بحكم ما كان يعالجه من موضوعات ومسائل حتى صار أحياناً في مستوى النثر العادي..).
وقال: (ويجب ألا يفوتنا الإشارة إلى أن القوة الخطابية في القرآن أخذت تفتر حماستها برغم استعمال السجع في أجزاء القرآن التي نزلت بالمدينة..).
قال: (وبينما ترى محمداً يسرد في الأولى ـ فترة ما قبل الهجرة ـ رؤاه الكشفية الإلهامية في فقرات مسجوعة متقطعة، وفق صوت ضربات قلبه المتقطع المحموم! نرى الوحي في الثانية يتخذ الشكل السجعي، لكنه مجرد من اندفاعه وقوته).
وكلام هؤلاء عن القيمة البلاغية لسور القرآن، مثل كلام أي ريفي في بلادنا عن شؤون الذرة.
أي لا شيء فيه غير الجهل والدعوى.
فإذا انضم إلى هذا الجهل حقد مشبوب جاء الحكم المراد ساقطاً عن كل اعتبار.
ونحن العرب ـ أدرى من غيرنا بنماذج البلاغة في أدبنا، وطبقات الكلام.
ونحن لا نقول شيئاً في التعليق على هذا اللغو أكثر من أن نسطر هنا فصلاً من رؤى (يوحنا اللاهوتي) ختم بها العهد الجديد، طالبين من أي قارئ في الشرق والغرب، أياً كان دينه، أن يأخذ قطعة من القرآن المكي، أي قطعة!! ثم يقارن بين الكلامين.
القرآن الذي هو من تأليف محمد البشر المدعي كما يزعمون، والعهد الذي هو وحي الملاك ليوحنا الرسول.
وهناك كلام يوحنا الذي لا يوصف أبداً بهزل..!!
قال يوحنا: في الإصحاح الرابع: (نظرت وإذا باب مفتوح في السماء والصوت الأول ـ الذي سمعته كبوق ـ يتكلم معي قائلاً: اصعد إلى هنا فأريك ما لا بد أن يصير بعد هذا، وللوقت صرت في الروح.
وإذا عرش موضوع في السماء وعلى العرش جالس.
وكان الجالس في المنظر شبه حجر اليشب والعقيق.
وقوس قزح حول العرش في المنظر شبه الزمرد.
وحول العرش أربعة وعشرون عرشاً، ورأيت على العرش أربعة وعشرين شيخاً جالسين متسربلين بثياب بيض، وعلى رؤوسهم أكاليل من ذهب، ومن العرش تخرج بروق ورعود وأصوات.
وأمام العرش سبعة مصابيح نار متقدة هي سبعة أرواح الله.
وقدام العرش بحر زجاج شبه البللور، وفي وسط العرش وحول العرش أربعة حيوانات مملوءة عيوناً من قدام ومن وراء!!
والحيوان الأول شبه أسد، والحيوان الثاني شبه عجل، والحيوان الثالث له وجه مثل وجه إنسان، والحيوان الرابع شبه نسر طائر.
والأربعة حيوانات لكل واحد منهم ستة أجنحة حولها ومن داخل مملوءة عيوناً.
ولا تزال نهاراً وليلاً تقول: قدوس. قدوس).
وفي الإصحاح الثالث عشر يقول:
(وقفت على رمل البحر فوجدت وحشاً طالعاً من البحر، له سبعة رؤوس، وعشرة قرون، وعلى قرونه عشرة تيجان. وعلى رؤوسه اسم تجديف.
والوحش الذي رأيته كان شبه نمر، وله قوائم دب.. إلخ).
هذا الكلام كله وحي سماوي لا ريب فيه أو قطع من البلاغة لا شك فيها..!
أما قول محمد في قرآنه الذي نزل بمكة: (قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون والذين هم لفروجهم حافظون).. إلخ.
هذا الكلام سجع مقطع وفق ضربات قلب محموم ورؤى أساسها تجمع حالات مرضية عند شخص يحب الاتصال بالقوى الخفية..!!
أو هو يدعي ذلك ليكون نبياً!
وهذه التآليف من صنع الناس، ولا يجوز أن توضع في صعيد واحد مع رؤى يوحنا اللاهوتي التي هي وحي أعلى!
ماذا نقول لهؤلاء إلا أن نردد الحديث المشهور: (إذا لم تستح فاصنع ما شئت).
وهناك من وصل إلى النتيجة التالية:

(إذن، القرآن هو الأساس الأول للدين الإسلامي، وهو كتابه المقدس، ودستوره الموحى به، وهو في مجموعه مزيج من الطوابع المختلفة اختلافاً جوهرياً، والتي طبعت كلا العصرين الأولين من عهد طفولة الإسلام).
هذه النتيجة ولدتها كما رأيت مقدمات تشبه التفكير البقري الذي أشرنا إليه!
إن تصيد الشبه حيث لا مجال لشبهة، هو الذي يجعل بعض المستشرقين يزعم في إلحاح سمج أن هناك اختلافاً بين القرآن المكي والقرآن المدني، مرده ـ كما يتوهمون ـ أن الظروف التي واجهها الرسول في المدينة. أملت عليه كلاماً يباين ما قاله في مكة على أنه وحي من عند الله.
وقد استبد بهم الحماس في هذا الوهم حتى أفقدهم كل اتزان علمي.
حتر أن أحدهم يرى أن الآيات القرآنية تحكي مجيء إبراهيم إلى مكة واستيطان ذريته بجوار البيت بعد ما بناه هو وابنه إسماعيل. هذه الآيات مفتعلة، دعت إلى افتعالها رغبة الرسول في تآلف اليهود، وإثبات صلة قرابة بينهم وبين العرب.
ولذلك جاء في سورة البقرة ـ وهي مدنية:
(وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر).
وقوله: (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم).
والمستشرق الذي يوجه هذا الاتهام إلى القرآن ينسى في غمرة حماسه أمرين:
أولهما: أن الحديث عن إبراهيم وزيارة مكة، واتصاله بالعرب لم يبدأ في المدينة تأنفاً ليهودها، وإنما بدأ في مكة حيث لا يهود ولا زلفى!
وفي القرآن المكي سورة اسمها (إبراهيم) جاء فيها:
(وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبني أن نعبد الأصنام).
الثاني: أن العهد القديم ـ الذي يرى هذا المستشرق أنه كتاب مقدس ـ أثبت قدوم إبراهيم وابنه إلى بلاد العرب، فكيف يقول مستشرق متزن الفكر أن آيات سورة البقرة غير صحيحة، وأنها قيلت استرضاء لليهود، وأنها تخالف القرآن المكي؟
وليس المضحك أن يتورط مستشرق في هذه الغفلة الشائنة، لشدة رغبته في القول بأن قرآن المدينة يغاير قرآن مكة.
وإنما المضحك أن يجيء أحد المسلمين فيتبنى هذا الضلال. ويخرجه في كتاب ألفه بعد أن يخيل للناس أن هذا الكفر هو نتاج عقله الخاص، وليس نقلاً أعمى عن مستشرق موتور.
ونحن إذا رجعنا إلى التوراة نجدها تتحدث عن إبراهيم وإسماعيل وبني إسماعيل في الإصحاح الخامس والعشرين من سفر التكوين. وفي الإصحاح الأول من أخبار الأيام الأول.
وهذان الموضعان من التوراة، ولاسيما أولهما من أقدم أسفارها لأنه معاصر لموسى عليه السلام.
فهل يتفضل هؤلاء بإخبارنا كيف تسنى لهؤلاء الدساسين من اليهود الذين استوطنوا بلاد العرب أن يدسوا هذه الأسطورة قبيل الإسلام أو بعيد الإسلام في أسفار منسوبة إلى عصر أقدم من الإسلام بأزمان كثيرة، وكثيرة جداً؟!
كيف دسوا هذه الدسيسة في التوراة وهم في يثرب أو في خيبر أو في غيرهما من بلاد العرب، ولم يشعر بهم سائر يهود الدنيا؟
أم تراهم فعلوا ذلك بتواطؤ اتفق جميع اليهود عليه احتيالاً على إثبات الصلة بين اليهود والعرب، وبين الإسلام واليهودية، وبين التوراة والإنجيل؟
وهؤلاء مغرقون في الإفك حين يتهمون محمداً بأنه ألف القرآن، وعندما يجسم لهم هواهم شيئاً، اسمه الاختلاف بين القرآن المدني والقرآن المكي، إنه لا اختلاف إلا في رؤوس القوم، ومن تبعوهم بغرور.
وقد مضى هذا البعض المتجني في تخرصه ودخل في سلسلة من الأكاذيب، لا نرى مفراً من ذكرها:
(إن الإسلام لم يوحد العرب ولم يجمع قبائلهم المتفرقة على عبادة واحدة..)!.
وزعم أن هذه الوحدة تمت بعد تفوق المسلمين العسكري أيام دولة الخلافة.
وعاد إلى القول:(بأن محمداً انتخب تعاليم الإسلام من الديانات السائدة في عصره، اليهودية والنصرانية، والمجوسية، والوثنية، بعد تهذيب وصقل).
ويقول: (.. ذلك لأن محمداً قد أخذ بجميع ما وجده في اتصاله السطحي الناشئ عن رحلاته التجارية، مهما كانت طبيعة هذا الذي وجده. ثم أفاد من هذا دون أي تنظيم).
أي أن الإسلام دكان وجدت فيه مجموعات من السلع المستوردة، لم يبذل صاحبها شيئاً أكثر من التطواف هنا وهناك لاستيرادها.
إلا أن هناك خلافاً طفيفاً أشار إليه إذ يقول:
(مع تسليم محمد بأن الله خلق العالم في ستة أيام، فإنه رفض عامداً فكرة أن الله استراح في اليوم السابع، ولذلك لم يجعل يوم الجمعة يوم راحة).
أي أنه كان على محمد واجب الإيمان بهذا الإله المتعب المرهق حتى يتم التقليد، وفق تصور ذهن هذا المستشرق المضطرب، لكن الله الذي أرسل محمداً يقول عن نفسه:
(ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب).
أجل، والله الذي أرسل محمداً هو الذي وصف نفسه في كتابه بما ينزهه عن أوهام اليهود والنصارى والمجوس والوثنيين جميعاً.

وفرض من الشرائع، ما لم يعرفه هؤلاء ولا آباؤهم.. ومع ذلك فمحمد ناقل عن غيره.. وحسب!
هذا، ويوغل البعض في مفترياته، فيزعم أن فكرة الإسلام عن الله أدنى من فكرة الأديان السابقة عنه!
ونظن ذلك لأن الإسلام لم يقلد سفر التكوين في تصويره الله بأن دخل في ملاكمة مع يعقوب!
أو في تصويره الله بأنه تعب من بناء السموات والأرض!
أو في تصويره الله على النحو الذي قرأت في رؤى يوحنا اللاهوتي.
ويعود فيذكر أن الإسلام تضمن فضائل خلقية لا شك فيها، غير أن هذه الفضائل منقولة عن الديانات القديمة، ونحن نعرف أن الأخلاق الفاضلة ليست حكراً على دين من الأديان، بل إن أغلب الفلسفات الإنسانية قد تضمنت أصول هذه الأخلاق، ووصت باتباعها.
فلماذا يتهم الإسلام بأنه نقل عن غيره، ولا تتهم الديانتان اليهودية والنصرانية بأنهما نقلتا كيانهما الخلقي لبنة لبنة من قدماء الإغريق، وقدماء المصريين؟
إن السواد الذي يصبغ قلوب المستشرقين لا يخف قليلاً ولا كثيراً كلما تعرضوا لمحمد ولدينه، وهم في ضغائنهم الغالبة لا يرددون إلا التهم التي سبق بترديدها الأعراب البله من أهل الجاهلية:
(وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً).
كل ما هنالك من فرق بين الجاهلين الأوائل، وأخلافهم من المستشرقين، أن أولئك استحيوا من باطلهم، وتابوا عنه.. أما هؤلاء فباسم العلم الحر يكذبون.. وباسم البحث المحايد يفترون: (صم بكم عمي فهم لا يرجعون). -
ولنا أن نتساءل: هل صحيح أن الإسلام (لا يستطيع أن يمد المؤمنين به بفكرة مثالية للحياة الأخلاقية؟ وهي فكرة اتخاذ الرسول مثلاً أعلى واحتذائه؟) كما يقول هؤلاء الحاقدون
إنهم يزعمون أن الرسول لم يكن أسوة لأتباعه و أن الرسول نفسه كان يعرف ضعفه الإنساني، ولذلك لم يطلب من أحد أن يتخذ من مسلكه قدوة له؟!
وهذا كلام يحار المرء في تقدير الغباوة التي أملت به.
إن حديث المستشرقين عن رسول الله [ناضح بما يكنون في أنفسهم لشخصه الشريف من ضغن وإنكار.
والأمر أكبر من أن نناقش فيه يوماً بينهم وبين الحق أشواط وأشواط.
إن ذلك كإقناع اللصوص بنزاهة رجال الشرطة أو إقناع الملحدين باستقامة أهل الإيمان.
بيد أن لهم أفكاراً في هذا الشأن نود أن نقف قليلاً لديها..
فهم يدعون أن الإسلام عاجز عن إمداد المؤمنين به بصورة مثالية عن الحياة الأخلاقية.
وأن حياة محمد لا تصلح نموذجاً رفيعاً للمؤمنين لما يكتنفها من ضعف إنساني.
وأن علم الكلام هو الذي جاء بعد ذلك فرسم صورة أسطورية للرسول الكامل، ثم أضفى هذه الهالة من الكمالات على شخص محمد.
ولولا هذه الهالة المضفاة على محمد، ما صلح أن يكون أسوة للمؤمنين به، إذ حياته الواقعية دون ذلك.
وهاك ما جاء عندهم:
(لو أن الإسلام قد تمسك بشهادة التاريخ الحق تمسكاً دقيقاً لوجد أنه لا يستطيع أن يمد المؤمنين به بفكرة مثالية للحياة الأخلاقية، وهي فكرة اتخاذ الرسول مثلاً أعلى واحتذائه، ولكن المؤمنين لم يتركوا أنفسهم يتأثرون بصورة محمد، كما رسمها التاريخ الصادق، بل حل محلها منذ أول الأمر الأسطورة المثالية للنبي في رأيهم.
إن علم الكلام في الإسلام قد حقق هذا المطلب، بما رسم للنبي من صورة تمثله بطلاً ونموذجاً لأعلى الفضائل، لا مجرد أداة للوحي الإلهي ولنشره بين غير المؤمنين، على أنه يبدو أن هذا لم يرده محمد نفسه، فقد قال: إن الله أرسله (شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً)، أي أنه مرشد لا نموذج ومثل أعلى، أو على الأقل أنه ليس كذلك (أسوة حسنة) إلا بفضل رجائه في الله وذكره كثيراً.
ولقد كان ـ على ما يبدو ـ مدركاً بإخلاص إدراكاً صحيحاً ضعفه الإنساني، وكان يريد أن يرى فيه المؤمنون رجلاً له عيوب الإنسان ومن ثم كان عمله أعظم من شخصه، ولم يشعر في نفسه أنه قديس، ولم يرد أن يعتبر كذلك).
وقد وردت هنا آيتان آيتين من القرآن الكريم لم يحسن فهمهما:
الأولى: قوله تعالى: (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً).
فقد ظن معناها أن الرسول رجل قوال فقط يرشد الناس بلسانه، أما سيرته ومسالكه فليست مما يقلد فيه، وليست مثلاً أعلى للآخرين.
وهذا كلام بالغ التهافت والهزل.
فكيف يوصف رجل بأنه سراج منير، إذا كانت أخلاقه وأعماله مظلمة، أو دون ما يقول؟ ولماذا تختار السماء رجلاً صريع ضعفه الإنساني ليتحدث عنها؟
أما الآية الثانية الناطقة بأن على المؤمنين الاقتداء برسولهم، لأنه أسوة حسنة، وأنهم ـ إذا أرادوا بلوغ مرتبة الاقتداء ـ فليستعينوا بالرجاء في الله، والإعداد لليوم الآخر، وإكثار الذكر، فإنه لن يستطيع التأسي بالرسول العظيم، إلا من استجمع هذه الخصال الشريفة.
هذه الآية فهمها من أورد هذا الكلام على نحو آخر، فهم معناها أن الرسول هو الذي يرجو الله واليوم الآخر، وأنه لم يتجاوز مرتبة الرجاء في الله، لأن عمله لا يرشحه إلا لهذه المرتبة!!

ولنترك هذا الجهل جانباً، ولن نتحدث هنا عن عظمة محمد تحدث المدافع عنه، فمحمد أكبر من ذلك، وأنضر وجهاً، وأعز جانباً.
لكنا نضحك للقول بأن علم الكلام هو الذي تولى سد النقص في القيم الروحية عند المسلمين.
نعم، غريب أن يتولى علم الكلام تقديم النماذج الإنسانية الرفيعة للمسلمين.
إن هذا العلم ـ في أحسن أحواله ـ يعرض العقائد الإسلامية عرضاً نظرياً، ويبسط أدلتها، ويفند شبه الخصوم، ويكشف حقيقتها.
أما في أحواله الذميمة فهو يخلط المعرفة الإسلامية بالفلسفة الأجنبية، ويخوض بحوراً موحلة من المباحث الغيبية والشطحات العقلية.
فما تكون صلة علم ـ هذا موضوعه ـ بتصوير المثل العليا للمسلمين؟
ولماذا تم اختيار هذا العلم، ولم يختر النحو أو الجبر؟
ثم هو يقول: (إن محمداً لم يزعم للناس أنه قديس). فماذا يقصد بهذه الكلمة؟
إن محمداً حقاً لم يصف نفسه، ولا وصف أتباعه بأنه (كاردينال) أو (بابا)، لأن هذا الرجل الذي قدم للناس كتابه وسنته، كي يصلهم بالله رب العالمين، لم يرض قط أن يكون كاهناً، ولم يرض قط أن ينصب نفسه وسيطاً بين العباد وربهم، بل قال لابنته فاطمة ـ وهي أقرب الناس إليه: (اعملي.. لا أغني عنك من الله شيئاً).
إن الميزة البينة في دين محمد أنه يجعل كل إنسان مسؤولاً عن نفسه، فهو بتساميه يستطيع أن ينال الرضا الأعلى، وهو بتدليه يستحق غضب ربه.
الإنسان صانع حاضره ومستقبله، بما يقدم من خير أو شر.
ولا مكان لدخيل من الكهان يزعم أنه يبيع المغفرة أو يحمل الخطايا.
الخاتمة
إن لم يكن ما يحدث في العالم من مآس وآلام تتجرعها الإنسانية دليلاً على جنوحها وابتعادها عن الهدي السماوي الذي جاء به الرسل وخاتمهم محمد عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه.. فماذا يكون إذاً.
وإذا لم يكن القتل والدمار والتشريد والتخريب الذي يمارسه البشر على إخوانهم من البشر دليلاً على الشر المستطير الذي يسكن جوانح الإنسان والذي يمنحه القدرة الشيطانية على ارتكاب أفظع وأقبح الجرائم فماذا يكون إذاً، وإذا لم تكن الآلام المبرحة والعذاب المتواصل الذي تلقاه البشرية بكل أطيافها ممثلة في الأمراض الفتاكة التي تعصف بالجسد الإنساني وبروح الإنسان ونفسه مهما امتلك هذا الإنسان من إمكانات وقدرات وخوفه الشديد من المستقبل وقوادم الأيام وسعاره المجنون لحيازة القوة بكل صورها دليلاً صارخاً على إفلاس كافة النظريات التي ابتدعها المفكرين على مر العصور فماذا تكون إذاً.
وإذا لم يكن قهر الإنسان للإنسان وتحكمه في مصيره وطريقة عيشه وامتهان حرماته وانتهاك أعراضه واستحلال دمه وسرقة مقدراته وإذلاله سلوكاً حيوانياً مشيناً ينتزع بكل يسر إنسانية الإنسان ويذيب الفوارق بينه وبين حيوان الغاب.. فماذا يكون إذاً.
إن كافة الدلائل والمؤشرات تصرخ بحقيقة الكابوس الرهيب والمدمر الذي تعيشه البشرية والذي يشير بوضوح إلى أن نهاية أليمة وقاسية تنتظر الإنسانية في المدى القريب وتستشرفها عقول الحكماء خلف ما فات الأفق المنظور.
ويبدو الأمر وكأنه صورة شاملة واضحة الأبعاد للأرض وسكانها من البشر، بعض أبعادها المأساوية يتعرض لها البشر من قتل ودمار وتشريد وأمراض تفتك وأنظمة بيئية يتم تدبيرها بطريقة منهجية يتزايد فيها الضغط على أنظمتها فيما يشير العلماء إلى قدر محتوم قاس وموحش ينتظر مستقبل هذا الكوكب وصرخات متواصلة تطلب الإنقاذ ولا من مجيب.
انتحار إنسان مأساوي في المشاعر والأرواح والمقدرات والموارد.
غفلة وجهل وتجاهل وجشع وحقد وصراع وقتل ودمار وعذاب لا يتوقف وسعار مجنون يستعذب الدمار والوحشية والانتقام.. أليس هذا من صلب عمل الشيطان.. وإذا لم يكن.. فماذا يكون؟